www.kotobarabia.com

أبو عبدو البغل

الظُّنونُ وَ الرُّؤَي

www.kotobarabia.com

عبد الحكيم قاسم

الظُّنُونُ وَالرُّؤَى

عبد الحكيم قاسم

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

جميع حقوق النشر و التوزيع الالكتروني لهذا المصنف محفوظة لكتب عربية. يحظر نقل أو إعادة نسخ أو إعادة بيع اى جزء من هذا المصنف و بثه الكترونيا (عبر الانترنت أو للمكتبات الالكترونية أو الأقراص المدمجة أو اى وسيلة أخرى) دون الحصول على إذن كتابي من كتب عربية. حقوق الطبع الو رقى محفوظة للمؤلف أو ناشره طبقا للتعاقدات السارية.

القضية

*الدعوى

زفر مقهورًا

- أنا لم أقتلها..!

فك اللفاع الصوفي عن رقبته قليلاً ليتنفس. الناس يقولون عن هذا اللفاع، إنه يأكل من رقبته فتتحل يومًا بعد يوم. كلهم ذاهبون إلى مأتمها.يحس تزاحم خطوهم وأنفاسهم وخشيش جلابيبهم حوله. راجعون من صلاة العشاء. لذعه البرد والخوف فتشبث باللفاع، يلتف حول رقبته مثل المشنقة، انقضت عليه نوبة السعال حتى كادت عيناه تخرجان من محجريهما.

- أنا لم أقتلها...!

و يوشك السعال أن يقذف بروحه خارج صدره. استند على حائط قليلاً حتى استعاد أنفاسه. عيناه المليئتان بالدموع لا تبصران ما حوله لكنه مشى يدب إلى مأتمها.

دار بعينيه من أسفل حاجبيه مستطلعا الوجوه الناكسة الصامتة. طرف محاذرا ناحية قارئ القرآن. محجرا عينيه عميقان مطموسان بالظلال. ملأه الوجه الأعمى بالخوف. أدخل رأسه بين كتفيه. كان وجهها أيضًا مخيفا. كانت ساقاها نحيلتين كحديدتين. كانت إذا تسير تحجل. ارتعد كأنما يسمع خطوها الحاجل يطارده في عتامة الزقاق ليلة أن سرقت نقوده.

ليلتها تحسس جيب جلبابه فلم يجد النقود في المنديل. استدار مرعوبا صارخًا:

-سرقت مالي يا امرأة... !؟

ومضت عيناها في الظلام كسكينتين وهو تضاءل أمـــام غضبها. صرخت فيه:

- امش من قدامي.. ملعون أبوك.. نجس مالك!

اختنق. احتبس نفسه تماما. تعلق بوجه قـــارئ القـــرآن المخيف نظره. السعال انقض عليه مرة أخرى يمزق صدره. دارت وجوه المعزين نلحينه والقارئ سكت وهو قام بســـعاله خارجًا ينشد الهواء. استند على حائط وظل يسعل حتى بـــرد جسمه وتثلجت أطرافه وأحس برأسه يذوب. انهـــار جالسًـــا بجوار الحائط.

ليلة أن ضاعت نقوده ذهب إلى إمام الجامع وبكى بـــين يديه:

- إنها كانت ماشية في الحارة على إثري.. وصرة النقود سقطت مني... هي التقطتها بلا شك.. وهي المتهمة بلا شبهة ..!؟

وإمام الجامع أطرق قليلاً ثم قال:

- فليقض شيخ المندل في الأمر بعلمه اللدُنِّي...!

• القضاء

تعذب إمام الجامع عذابا أليما ليقوم واقفا من مجلسه على الدكة. طويل نحيل كعود القصب. يفرج بين ساقيه. شيء ما مدلى بين وركيه يثقله بطريقة أليمة. وجهه أصفر كالميت. عيناه مائجتان. مضى تاركًا المأتم. يسير خطوًا قصيرًا مضطربا مثل طفل يتعلم المشي.

يحس عيون المعزين في ظهره، وطنين صوت قارئ القرآن الأعمى. خائف لم يعتد بعد ظلمة الشارع. والأركان مشحونة بغموض غريب. تداخل في نفسه، يمشي خطواته المتعثرة. يتجاسر الومض في جنبات العتمة. الخوف يسري في أوصاله. يتصورها عيونا تومض بالإدانة. يكاد يموت خوفًا. بذل جهدًا ليحرك موات شفتيه تخرج الكلمات من فمه مرتعشة. آية الكرسي تدثر قلبه بالأمان. انطلق يقرأ متشبثا بالحروف.

يا لسر الكلمات. ارتفعت همساته بالتلاوة وازدادت هزات رأسه عمقا. غمر روحه الأسى فتحدرت دموعه غزيرة ذليلة. كم سهر وحيدًا في الليل . كم سهده سر الكلمات، لكنهم لا يفقهون. هؤلاء الفلاحون. البقر العمى القلوب.

اعتادت عيناه العتامة فأصبح يرى. وقف مستندًا على عصاه ناحلاً مفرج الساقين ينظر إلى الأمام بعينين مريضتين وحوله تقف أكواخ الطين السمراء صامتة تتدلى على جباهها عيدان الحطب ثقيلة الأهداب بالندى. همس محدثًا أكواخ الطين كأنما هي الناس قعودًا على حضر المسجد الجامع:

-كانت لها عينا شيطان مريد... كانت تحجل كقردة.. لم تكن أبدا امرأة صالحة.. حطب جهنم.. حقت عليها كلمة الله بما سرقت.. ! ! ؟ ؟

• التنفيذ

جاء الناس جميعا. ضجيج هائل. وقف إمام الجامع وسط الحلقة نحيلاً مفرج الساقين مستندًا على عصاه وبجواره شيخ المنْدل. رفع هذا ذراعيه إلى أعلى فسكت الناس تماما. مد يده قبض على معصم طفل صغير. مات الولد خوفا. وضع صاحب المندل على الكف الصغيرة المبسوطة قلة

هجينا لم تبل أبدًا بماء. ترك القلة في يد الطفل المرتعشة المبسوطة ورفع ذراعيه ووجهه إلى السماء وبدا يتلو كلمات غريبة غير مفهومة لأحد. وجهه معروق مخيف. صرخ في الحاضرين.

ــ فليعترف السارق بجرمه قبل أن تحل به الفضيحة.. وإلا فإن القلة سوف تعرفه بسر الكلمات.. وبسر المندل.. !!

تقيب الصمت كأنما هو منصوب على شواهد قبور طينية.

بدأت القلة تهتز، ترقص، تميل والولد منقاد لها من ساعده النحيل. تأخذه سائرة به إلى داخل الحارة والناس خلفها زحام صامت لاهث الأنفاس حتى دار المرأة السوداء الصغيرة، دار كالجحر بلا بهيمة ولا عيال.

وما استقرت القلة على الدار حتّى صرخ الناس. صرخة واحدة. صرخة وحش متعطش للافتراس. التصقت المرأة بالجدار تصرخ مرعوبة. تقدم إليها إمام الجامع:

-ردي المال إلى صاحبه يا سارقة!!

و صراخ جميع الناس وراءه

-سارقة.. سارقة !!

والمرأة السوداء الصغيرة لا ينقطع نحيبها المرعوب الملتاع.

عاد الناس إلى الباحة على رأس الحارة. وقف الجميع متحلقين حول إمام الجامع والشيخ صاحب المندل.أخرج هذا قربة. ظل ينفخ فيها متمهلاً وئيدًا والقربة تنتفخ رويدًا رويدًا، تتجسم في شكل حيوان نافق منتفخ.

وشيخ المندل تكلم خاطبًا:

-علقوا هذه القربة في دار قوم صالحين.. سوف تحل لعنتها على السارقة.. تنتفخ وتتعذب حتى الموت..!

و قد كان. وعلى هذه الصورة على صورة حيوان نافق منتفخ، وجدت المرأة السوداء الصغيرة في دارها ميتة بعد أن لختفت أياما لزمت فيها الدار لم تبرحها.

هكذا ماتت وها هم الرجال في مأتمها ناكسو الرؤوس يسمعون القرآن من غلام مفقوء العينين.

• الحقيقة

كانت امرأة طيبة، سوداء صغيرة طيبة . لم يعرف أحد بنت من ولا إلي من تنتمي. هكذا كانت. صبارة وحيدة لا تعرف من زرعها. لكنها كانت طيبة، تبكي وتضحك كالأطفال وتخمش من يؤذيها كقطة. تدور سحابة يومها على السكك تجمع السنابل الساقطة من أحمال الجمال وتجمع الروث والحطب لوقود كانونها.

وهو.. ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله.. ماذا كان بوسعه أن يفعل..؟ كانت النقود في جيبه طول الوقت. المال المسروق ملفوف في قماش المنديل ومعقود عليه عقدتين.. لكن يا ستار .. ماذا كان بوسعه أن يفعل..؟

عيناه مغمضتان ورأسه ناكسة وصوت قارئ القرآن يأتيه من بعيد. كأنما الله يعاتبه. وكأنما ثقل صرة المال

الحرام في جيبه تجذبه نهوي به إلى العذاب. الناس تضطرب بالأمر اضطرابا شديدًا وهو جامد مشلول من ساعة ما لقط الصرة من الأرض في عتامة الزقاق وهو جامد مشلول لا يسعه أن يقدم على فعل.

نظر ناحية الرجل الذي يسعل بشدة. ود من قلبه لو أن روحه خرجت مع إحدى سعلاته ذلك الإبليس المرابي. ما ينقصه لو ضاع منه ملء منديل وعنده في طاقة الجدار كوز مليء بالجنيهات. كم فرح عندما لقط المنديل من على الأرض عند كعب هذا الكلب. وهو الآن يقبض على الصرة بشدة موجعة وكفه تنضح عرقا.

يوم المندل ذهب مع الناس ليرى. صرة المنديل في جيبه تقبض عليها يده. القلة تمر به. قتل ألف مرة بفأس ثلمة. لكن القلة اجتازته ومشت نحو دارها. يا ستار. ما أتعس الناس الضعفاء المقطوعين.

ماذا كان يمكنه عمله.. ؟ كانت القرية منفوخة معلقة في وسط دار رجل صالح والناس لا ينامون من الرعب. وهو قعد في دهليزه مفتوح الفم مفتوح العينين جامدًا لا يطرف إلى أن أعلن صراخ النسوان موتها وتنفست القرية الصعداء... ها هو في مأتمها وصوت قارئ القرآن يأتيه كالنواح.

نواح يجتاح داخله. رعب يسحقه. يتقصد لحمه كأنه مريض بألف علة غريبة على الحكماء. هب واقفا. انطلق لا يلوي على شيء إلي بيت المرابي. كان متقرفصًا في وسط داره يسعل يذهله السعال عما حوله. ألقى في حجره بصرة المنديل وهرب لم يعرفه أحد.

• والناس نسوا

فإن للأيام الفائظة أصائل ناعمة. وساعة العصر تكون الباحة على رأس الحارة ملعبا للنسمات الطرية. وبائع القماش يأتي ويحل صرته عن الأثواب الباهرة الألوان. والنساء حوله يضحكن ضحكات مكركرة ذات ذيول.

وساعة العصر يأتي بائع الأباريق – ذلك الجسور – أسود الساعدين أسود الفخذين عظيم الهامة عظيم الآلة. يقيم الأباريق حوله كأنهم أطفال سود ساكتون. يعابث النساء ذلك الجسور وهن حوله مائتات ضحكا.

وفي قيعان الدور تتعرين. يتدفق الماء الساخن من الأباريق يلذع الأجساد العارية لذعًا جسورًا. تتبعث تحت وقع الماء على الأجساد الزحفات والشهقات. ثم تمضي زرافات النساء إلى محل الزار يرقصن على لحن الدفوف الوحشي

في الجلابيب الملونة حتى الغياب. إنهن كن قد شيعن نعشها حتى آخر الحارة وصرخن وراءه حتى انقطعت أنفاسهن.

تحت السقوف الساخنة

● يا سادتي

ليست الأشياء هكذا دائما. ومقاييسكم ليست مطلقة، ومن كومة القمامة قد تتبثق زهرة خارقة البهاء، أو قد تسبح على وجه البركة المتعفنة الراكدة الناشبة فيه نباتات الماء. إنني مرات عديدة وقفت بإزاء مثل هذا الجمال حائرا.

حقا إننا نملك شوارع تكتسح المسافة، وسدودًا تلزم الأنهار شطآنها في خجل، وموسيقى تنفي عن الروح الضعة، لكن تأملوا. حياتنا هذه كانت في البدء أكداسا من الهلام عائمة في مستنقعات شاسعة. ينبغي علينا إذن أن نتفكر أي طاقة هائلة تحتويها الحفر المبلولة والزوايا المعتمة.

من هنا أكتب لكم. الحارات تنحدر نابتة من الشارع الكبير كالشرايين على ظهر ورقة الشجرة. البيوت متزاحمة متراكمة وسط أكداس القمامة. البيوت كلها جديدة مبنية بالطوب الأحمر ولها سقوف من الأسمنت المسلح. بيوت بسيطة العمارة، بل إنها جهنمية. السقوف الأسمنتية الواطئة تتحول في وقدة الظهيرة إلى ألواح من نار قريبة من رؤوس السكان. ويخيل إليّ أن قشرة الدماغ ربما يصيبها بعض التلف من تسلط هذه الحرارة عليها. بل ربما اختلط عمل المراكز المخية. لا أجزم بذلك، فلست متخصصًا.

الناس في شبابيك البيوت مثل مقل مريضة حائرة في نقر المحاجر. وهم أمام أبواب البيوت شاحبون مبقعو الوجوه، يضحكون أو يبكون بعصبية وزعيق عال. وإذ يتعاركون يخشمون ويجرحون بقسوة غريبة. تسيل الدماء الحارة قانية. فجأة تجمد مسودة على الجروح إذا ما ضربتها الشمس.

أكداس من القمامة في كل مكان. فالناس طول النهار يرسلون العيال بالقروش إلي الدكاكين يأتونهم باللفائف الصغيرة. يفضُّونها، يلقون بالبقايا من الشبابيك ويأكلون، كأنهم جميعا معدة واحدة لها مليون فم ومليون يد تتناول ومليون فتحة إخراج. أهذا هزيم التمطق أم دبيب الحياة الجبارة التي احتوتها أكداس الهلام العائمة في المستنقعات الشاسعة في الزمن القديم.

هنا رأيت كوثر. قبض الحزن قلبي، يا إلهي كم من العمر راح. لو كانت يدي قادرة على أن تطول النجوم، أو تخط أكثر الكلمات عذوبة. لو كانت الدموع تظل تهطل حتى تغسل كآبة القلب.

يا سادتي من هنا أكتب لكم. في قلبي وعقلي وروحي أجد كوثر، العينين والغديرتين والأنامل.

• الفرح

من الشبابيك تطير الضحكات والتحيات والتنادي، خبر الفرح مثل نسمة طرية تطيِّر الكلمات الحلوة والغدائر والشيلان وذيول الفساتين وتشيع في الوجنات اللون وفي العيون البهجة. دُخْلةُ العريس على العروس الليلة ومكبِّر الصوت يرن في جنبات الدنيا بالموسيقى والغناء. والناس تمشي في جماعات في اتجاه الحارة حيث العرس.

كوثر طائرة في وسط الشارع. يدوس شبشبها في الوساخة والبلولة، يتلوث لكن كعبها يبقى نظيفاً، تلوح بكفين سمراوين خشنتين من الشغل والشمس لكن الأظافر مطلية بطلاء وردي من عند أبلة حسنيه لمرأة سي رمضان. يا ربي كم هي فرحة. قلبها مربوط بخيوط إلى كل هذه الشبابيك المطلة منها وجوه صويحباتها مهتاجة بأخبار العرس.

كل آن تنزل واحدة. تمشي كوثر على رأس الجماعة السعيدة. كلهن ذاهبات إلى العرس. ملن من الشارع إلى الحارة. الحبال مشدودة بين واجهات البيوت على الصفين تحمل المناديل الملونة والرايات وعقود من مصابيح الكهربا. مكبر الصوت مروّع حتى ليكاد القادم يسقط على ظهره من عنف الزعيق. لكن العروسة جالسة جنب العريس على كرسيين منصوبين على تخت عال يلمع على جباههما الضوء وحولهما الآلاتية وأمامهما تقف الراقصة والحارة مزروعة عيالاً ونساءً ورجالاً وزعيقا. خليط الغناء والعزف والضجة يقذف به مكبر الصوت عاليًا إلى السماء فما يميز السامع منه شيئًا.

العروسة جميلة. يا ربي ما أحلي الزواج . كانت منذ يومين واحدة من صاحبات كوثر، ثم جاء الحظ حط عليها، خطفها من وسطهن. العريس في شركة البلاستيك. شاب زين. من يوم الخطوبة يأتي بمظروف أجرة كل مدة

أسبوعين يلقيه في حجر عروسته بختم كاتب المصنع. تفتح العروس المظروف بيدها لتجد الأجرة كاملة لم تنقص مليمًا. وضعوا القرش على القرش حتى استطاعوا أن يشتروا كل شيء. اليوم دخلتهما. ما أحلى الزواج قلب كوثر مُشَبَّع بالفرح مثل قرص عسل النحل.

لكن سرعان ما آن أوان الخلة. زفت ست سنية الراقصة العريس والعروسة إلى غرفتهما مشت أمامهما ومعها الآلاتية وهي ترتدي الفستان الحرير الوردي المزين بالترتر اللامع وذيله يجرجر على أرض الحارة حتى النهاية. ثم عادت الراقصة لتجلس على التخت وحولها الآلاتية. ترى الكأبة بعد ذهاب العروسين مختلطة حتى بضوء الكهرباء وبألوان المناديل والرايات وعلى وجوه الناس. لحظة مليئة بخيبة الأمل العروس للعريس والجري للمتاعيس. هما الآن في سرير العرس. آه ما أحلى الزواج.

أحاط الشبان بالتخت زاعقين زائطين يطالبون الراقصة بأن تبدأ. كوثر تعرف ست سنية تقايلها أحيانا ذاهبة إلى الدكان أو عائدة منه. تبادل البنت الست التحية مبتسمة عن أسنان ذهبية. تفرح كوثر بالابتسام. تعرف الآن أن الشباب يريدون أن يروا ست سنية ببدلة الرقص. خنق الخوف قلب البنت قليلاً. تمنت ألا تخلع ست سنية رداءها الحريري وتبقى عارية بتلك البدلة المدندشة.

أم آمال فرحة بأخواتها البنات الثلاث. شامخات متفجرات بالصبا. أجسادهن ملفوفة في جلاليب الليمون المشجر الخفيف حتى لتبدو السراويل ومشدات الأثداء. أبو آمال وأصحابه مخبرو الشرطة يدخنون سجائر الحشيش ويقرقعون بالضحك. كل آن يخرج واحد منهم مسدسه من تحت جلبابه البوبلين الأبيض ويطلق منه الرصاص في المساء. يعقب ذلك عاصفة من زياط الجدعان والبنات. سي رمضان بشركة المقاولات واقف مع حميه سي خليل عضو

الحزب.. على البعد يرتكن على الحائط سي حسن الشـــرطي الذي دركه في العجوزة. يدخن شاردًا ولا يكلم أحدًا.

صاحبات كوثر حولها يضحكن مرحات ويتغامزن على كل شاب حولهن ويختلفن فيه، هل ينوي الـــزواج أم لا، وأي واحدة منهن قد تروق له. تضحك كوثر معهن لكنهـــا تعـــود لشرود متأملة الناس حولها وعائدة مرة أخرى إلـــى مراقبـــة الست سنية الراقصة متسائلة في خوف، أتراها تخلع ثيابهـــا فعلا. في هذه اللحظة رأت كوثر أمها مقبلة من أول الحارة. ما زالت نضره كأنها الأخت الكبيرة. إذا حازت جماعة سي رمضان حيتهم. قبض هذا على يدها وجذبها إليه أوقفها إلـــى جانبه تقلص قلب كوثر في صدرها.

خلعت ست سنية فستانها الوردي وبقت شبه عارية ببدلة الرقص المدتشة وسط الجدعان المحيطين بالتخت يزعقـــون بها زعيقًا عاليًا. طيات لحمها شائخة متهدلة في تناقض مـــع

وجهها المطلي بالأبيض والأحمر. تأملت كوثر ست سنية طويلاً وهي مقهورة، ثم تحولت عيناها إلى أمها. مازال سي رمضان قابضا على كف الأم وهي واقفة إلى جواره لاقت عيناها عيني بنتها. خلصت كفها ومشت ناحية كوثر. مشيا معًا عائدتين لا تريان في ظلام الشارع بعيونهما العاشية من أنوار الفرح. تتخبط الأقدام في الحفر المبلولة وفي أكوام الزبالة. ضجة مكبر الصوت تدق الرؤوس بلا رحمة. تحدرت دموع كوثر على خدودها دافئة.

كوثر يا بكرية أمك، لماذا تبكين؟ يا لك من بنت رقيقة ودمعتك قريبة.

• السوط الفولاذي

إحدى عينيه ثقل جفنها حتى انسدل وظلت مغمضة. لا يدري أحد متى بدا هذا، ولا هو نفسه. ربما مرة غمضت هذه العين فكسل عن فتحها وتركها هكذا. ربما قال في نفسه أن الأخرى كفاية. يشتغل في مصنع الزجاج. ينقل هناك

الأشياء الثقال من مكان إلى آخر. هذا عمل لا يلزمه تحديق كثير. لما يفتح عينيه وهو يؤديه؟ أحسن أن يغلقهما، خاصة إذا كان الحمل ثقيلاً.

له حذاء غليظ متهرئ. مشي يدب في الطريق على أكداس القمامة. حذاء قديم في قدمي عملاق قديم يندفع في مشيته عائدًا إلى بيته. طول عمره يعود إلى بيته في هذه الساعة تعبًا. طول عمره. اشتغل عاملاً زراعيًا ومبيضًا للنحاس وأشياء أخرى. الأمر لا يختلف كثيرا. يروح لشغله باكرًا ويعود في المساء تعبًا. يا له من عمر. ليس له شهادة ميلاد. لم يشغل نفسه بهذا. من أول الزمان وهو يدب رايحًا وآيبا على طرق متسخة بالبقايا. من أبوه؟ من أمه؟ كيف كانت دارهم وهو طفل؟ لا يذكر هذا الآن ولم يحاول أبدًا أن يتذكره، فما تجدي الفروق. السنون السود شرت الناس هنا. رجال شعث غبر ونساء كالبقر العجوز جاءوا من كل القرى، كدّسوا في دور تعذبهم بالحر وتعذبهم باليرد، في بقعة

أقصيت عن المدينة وأبعدت عن رحمة الله، يعود إليها كل مساء من عمله موثق العاتق بالعناء.

و لقد كثر اللغط هذه الأيام حتى ليحس بغربة حقيقية ويتكلمون كثيرًا هؤلاء النحيلو المعاصم، وهم يملكون الآلات التي تجعل الأصوات عالية نافذة لا تستطيع أن تغلق من دونها الشبابيك. في كل نافذة دكان، على كل حائط، على كل مئذنة، على كل سطح دار يوجد مذياع أو مكبر صوت. الناس فرائس هذه الضجة وتستخرجهم من قيعان الغرف وتسيمهم العذاب بالخطب والآذان والغناء والإعلان عن البضاعة. يلقون إليك بالبيانات وينهون إليك آخر الأخبار، يطربونك، يعظونك، يدعونك للصلاة ويحذرونك من معاصٍ لا تعرفها. أين تهرب يتحدب الجسد العملاق من الخوف. أعضاء الحزب ذوو الأسنان اللامعة واللثي الزرقاء. هؤلاء الذين يملكون بطاقات يضعونها في جيوب قمصانهم الشفيفة.

ثم انطلقت فرقعات السوط الفولاذي كطلقات الرصاص. تترى بإصرار وقسوة وحشية. يتحدب الرجل متحاشيا السوط الطائر فوق رأسه . يزداد تحدبًا ومذلة، والسوط طائر في الهواء كأفعوان مصنوع من فقرات فولاذية تدوي فرقعاته وتظل تدوي حتى يقعي الرجل مهيضا مكسورًا يعوى:

-السماح ياعمي!

عندئذ ألقى المجذوب بالسوط على ظهره. حلقات من الصلب تبدأ في حجم القبضة ثم تصغر وتستدق حتى تصير في النهاية قدر حبة الشعير. السوط متسدل على قامة المجذوب حتى الأرض. يضحك ضحكات بشعة. تلمع أسنانه في الضوء الشاحب. ملامحه مجنونة بالتشفي. مد يده فتناولها الرجل، قبلها في خضوع وعاد يواصل طريقه نحو بيته.

يدب في حذائه المنهرئ. ذليل تسح الدموع في داخلـــه. تذكّر ابنته كوثر بكريته ووحيدته. ليته اشترى لها شيئًا طيبًا.

لا تتعبي عينيك بالتحديق في العتامة قلقا على أبيك يـــا كوثر. إنه سيأتي على أي حال.

• جدار الخوف

شحمة أذنها تقرقت ثلاثة ألسن صغيرة. لـــم يبـــق الآن مجال لقرط، وهي كانت تهوى القروط الثقيلة. طاقتـــا أنفهـــا هائلتان. تشرع وجهها لأعلى وتشهق، ثـــم تثـــوب ناكســـة الرأس تعبث في ملء جيب مرولتها من قروش الألمونيـــوم. تجلس على كرسي بجانب منضدة رخامية صغيرة، يأتي ولد نحيل. تلقي إليه بفردتي شبشبها من قدميها. يأخـــذهما الولـــد ويتنحي بهما ناحية من الرصيف كيما يعكف على طلائهما.

من مكانها هذا ترى امتداد المنازل على جانبي شريط القطار. منازل صغيرة مكدسة أسمنتية السقوف. أسراب الناس – على البعد – صغار سود كالنمل يديون يعبرون شريط القطار من ناحية إلى الناحية الأخرى بلا كلال. كل آن يندفع قطار على الشريط داويًا مزلزلاً قاطعًا أسراب الناس بقعقعة الصلب الخرافي القوة. يجزع الناس. يقفون على الجانبين متراجعين. لكنهم يعودون مرة أخرى، يدبون يعبرون من ناحية إلى الناحية الأخرى. وهي معهم، من مكانها هذا تتبعهم بعينها. ثم يزلزل القطار ويجمد قلبها خوفًا. حتى يذوي الضجيج مبتعدًا. حينئذ يستريح خوفها وتعود تعبث بملء جيب مرولتها من قروش الألمونيوم.

لحظات الخوف تلك صنعت أيام العمر. أيام عصرت القلب بأصابع من حديد. يرحم الله رجلها. كان خشن الصدر عظيم الساعدين ثقيل الوطء. كان يلم مزق نفسها في الليالي السود. كان يقبض على معصمها بكفه الضخم ويمضي بها

وبالعيال يجوب أرجاء النهار مفزوع العينين يحفر في الشقوق من أجل العيش، ثم إنه كان يشتري لها كل آن قرطًا، فكم كانت تهوى القروط الثقال لحظات الخوف، والدمعة الدافئة بعد انقشاع الفزع. يا له من عمر.

تدير هذا المقهى الصغير على محطة شبرا الخيمة. تقدم الشاي لراكبي القطر البطيئة. رجال طيبون وقطر قديمة تتلكأ قليلاً هنا، ثم تمضي تجرجر حديد أطرافها مقرقعة وهي من مكانها هذا على الرصيف ترى امتداد المنازل الشاسع. لها تحت هذه السقوف الساخنة بنين وحفدة يدبون رائحين غادين مع هذه الأسراب السوداء. كثيرًا ما يأتون يرفعون إليها وجوهًا تعرف فيها ملامحه. يرحم الله رجلها تدس يدها في جيب مرولتها وتعطيهم قروشًا من الألومنيوم.

كان يلم مزق نفسها في الليالي السوداء، ثم مات. العزاء أن الصبح يطلع بعد الليل الموحش. تلبس شبشبها وتسعى

إلى المحطة، إلى الأنس بزيائنها من ركاب القُطْر البطيئة. رجال طيبون يرشفون الشاي وينصتون لها تحكي تضحك على أسنان تالفة وهي تسأل: ما نحن؟ وتقول وهي فرحانة: بذرتنا يد مباركة. نحن كثيرون ملء الأرض. ويحصد فينا الموت بمنجله ومن ورائه تخضر الربّة، ما التقت إلا صادفت وجهًا لصيقًا يوجهك. ثم تضحك وتشرب شايها وتضع قدميها في شبشبها الذي طلاه الولد حتى أصبح يلمع. تطرف ناحية الطابور التي تراه على البعد يزحف عابرًا شريط القطار في تصميم . عزم رث متّرب مصمم لا يتردد . تجد في قلبها بقايا نشوة قديمة. يرحمه الله رجلها. كان يلم شعث نفسها في الليالي الموحشة.

فجأة انطلق على القضبان قطار سريع. ضجة ترتج لها أرض الرصيف تحتها وهي جالسة. هبت واقفة وكوب الشاي في يدها . القطار طائر بجناحين من ريح محمل بتراب أعمى عينها. صرخت:

- استر يا رب...!

شق القطار الطابور العابر قسمه. ضحية جديدة سقطت. رشق خنجر الفزع في قلبها. ولولت كما لم تفعل في أسود أيامها. يارب كل شيء. كيف عرفت أن القتيل هو أحد أبنائها كان ساعيًا إليها.

فتحت للابن الذي فقد ساقه دكانا، فهو لا يستطيع أن يعمل. كل يوم بعد أن ينتهي يوم عملها تمر عليه في دكانه. تقف قبالته طويلاً وتتنهد ثم تمضي إلى بيتها. كوثر أيتها الصغيرة غير المجربة، لا يوجد رجل برجل واحدة. إنما يفقد الرجل ساقه ويبقى عمره يتألم.

• اللص

الناس أمم مغسولو الثياب، قريرو الوجوه بالمذلة، يمشون نحو المسجد في الشارع المفروش بالقمامة. مكبِّر الصوت يدوي بكلمات خارقة كأنها فرقعات صوت المجذوب، والناس يمشون حتى المسجد. يخلعون أحذيتهم ويخطون على الحصير الرطب. يسلمون أنفسهم للعتامة الساجية، صامتين كأنما على رؤوسهم الطير. استمعوا للموعظة. صلوا وحينما انتهت الصلاة تلفتوا بحثا عن فعالهم. حينئذ صاح صوت خائر ملسوع:

-الفاتحة يا رجال يا مؤمنين.. اللهم احرق قلب من سرق مذياعي .. اللهم احرق قلبه كما حرق قلبي!

وتحركت الشفاة والقلوب تقرأ الفاتحة، وتستمطر اللعنة وغضب السماء على اللص. فهؤلاء الناس لا يخشون شيئاً

مثلما يخشون اللصوص والنساء ذوات الصـــدور والأرداف والعيون والجسورة.

أما هو فإن له دكان بقالة صغيرة، يقضي النهار مستندًا بمرفقه على طاولة البيع. بيده الأخرى يمسك عكازه. العيال النحاف الشاحبو الوجوه والنسوة والبنات ذاهبون إلى دكانـــه وآيبون من دكانه النهار بطوله في مسارب كمسارب النمـــل الأسود.

لم يسمعه أحد أبدًا يتكلم. له عينان واســـعتان وشـــارب رقيق وذقن مزغبة. وحينما تلقي يد نحيفة قرشًا فإنـــه يـــرن على رخامة طاولة البيع الموضوعة في فتحة الباب. حينئـــذ ينظر هو إلى الوجه الخائف في حنان صامت. يتناول القرش ويلقي به في الدرج يدور حول نفسه على رجل واحدة فـــي دكانه الصغير. ثم يظلع متحركًا إلى رفوف البضاعة. يـــأتي بالمطلوب يطرحه على البنك في سكون.

مسارب الأقدام على الأرض المحملة بأكواب القمامة لا تعدم الحياة أبدا. ذاهبون إلى الدكان أو آيبون منه. يحملون المشتروات في الأيدي والقلوب ترتجف بالهمسات كأسلاك البرق، في الغرف الساخنة السقوف يتكلمون بصوت أكثر ارتفاعا، لكنه أيضا خائف ومرتجف:

- هل رايت ذلك الذي كان واقفًا معه عصر أمس؟
- ذلك الولد في القميص الأحمر؟
- نعم.. كانا يتكلمان ويتلفتان حولهما في حذر..!
- يا خوفي أن تكون عيونهم على سكني..!
- ما الذي عندك تخافين عليه؟
- وعاء الطبخ النحاسي الكبير..!

و تصمتان. يستطيل الصمت المتوتر. ثم فجأة ينفجر صراخ ملتاع في ناحية من نواحي الحي. ينهمر الناس على مصدر الصوت. هناك يتكدسون جمهورًا زاعقًا صاخبًا

حاقدًا. وفي بؤرة الجمع تقبض سواعد قوية على شاب نحيل زائغ العينين يحمل متاعًا مسروقًا. يُرغم على أن يحمله على رأسه كشاهد لا يكذب على ارتكابه الجريمة. تنهال عليه اللكمات والصفعات ترضه وتلهب أصداغه وتطيّر الشرر من عينيه. المجذوب وسط الجمع يفرقع سوطه في نشوة. الفرقعات كطلقات مدوّية. ثم تتحرك الزفة بالولد المتهم بالسرقة إلى مخفر الشرطة. هناك يتركونه ويرجعون. الذين قبضوا عليه وسلموه ينتشرون في الشوارع بين البيوت مكونين نويات صخابه. جماعات صغيرة كل واحدة تحيط بشخص يحكي ويحكي بفرحة غليلة يلحق بالحلقات العيال والبنات والنسوة والعجائز ينصتون مبهورين بارقة عيونهم بالدهشة والخوف.

لكن الناس أيا ما كان الأمر لا يكفون عن الاحتياج إلى قطعة صابون أو إلى ما ثمنه بضعة قروش من الجبن الأبيض أو إلى ملء صحن من العسل الأسود. لا يكفون عن

التردد على الدكان راجفين بالهمس كأسلاك البرق. وهو لا يغيِّر من متكئه على رخامة طاولة البيع. الحنان الصامت في عينيه الواسعتين لا يشويه اهتزاز. وإذا ما امتدت إليه يد بقرش دار حول نفسه على رجله الواحدة. ثم يظلع مستندًا على عصاه، يأتي بالمطلوب دون كلمة. ثم يعود إلى سكونه الأول.

تمشي كوثر ناحية الدكان قابضة على فلوسها في يدها. تضحك جدًا، فهي لا تعرف كيف تتزوج البنت رجلاً له ساق واحدة. لكنها تقول في نفسها لابأس مادام طيبًا وفالحًا. وإذا خطر لها ما يقوله الناس عنه، هزت كتفيها في عدم تصديق. مثله لا يسرق. في عينيه طيبة وتعفف كأنه على صغر سنه أب أو أخ كبير. كم تسعد إذا اشترت منه شيئًا. لا يقول ولا يجادل، إنما يفعل ما يستريح إليه القلب. سوف تتزوجه. وإذا لم يقل لها سوف تبادئه بالكلام. تضحك جدًا إذا تصورته معها في حفلة العرس يمشي يطلع بساق واحدة

مستندًا على عصاه. لكنها تقول لا بأس، القلب بوده والروح تهواه. تمشي ناحية الدكان قابضة على فلوسها في يدها.

رأت ناقلة الجنود تقف في الشارع الكبير. تدفق منها المخبرون والشرط وركضوا في الحارة الضيقة، انقضوا على الدكان. مزقوا كل شيء إربا. كسروا كل إناء حطموا كل زجاج. دلقوا كل سائل وكبوّا كل جامد. صرخوا وزعقوا ولكزوا بلا حساب. نشروا الرعب في دائرة شاسعة. لم يكن ثمة من يصرخ سوى كوثر.

الناس في الشبابيك كمثل حائرة في عيون مرتاعة. الناس مزروعون في الأرض دوائر دوائر حول الواقعة يرون الاحتياج بلا حراك. والأعرج بين يدي الشرط كخرقة. عجنوه عجناً. تمزق الثوب سال الدم طمست العينان بالكدمات. طار عكاز الأعرج. وحمل المضروب يمضون به

مدمدين. يقفزون من كل ناحية على الناقلة زمجرت هائلة واطلقت كإعصار من حديد.

أغلق باب الدكان. وضع عند اجتماع المصراعين شريط من القماش وختم بالشمع الأحمر. الناس يمرون من الحارة محاذرين. ينظرون خائفين إلى الشريط من القماش والختم المرسوم على الشمع الحكومي. ثمة خراب. خراب حقيقي. وفي تضام المصراعين بإحكام معنى العمى والهمود.

لا تراعي يا كوثر. ناس كثيرون يلقى بهم في السجون هذه الأيام. وكلهم سيعودون. سيعودون يوما ما. وإذا كنت قد تزوجت بآخر فسيجد هو أخرى. سيجد ابنة الحلال التي تسعد قلبه.

• أحدهم

يأتيان إلى بيتهم كل يوم، سي خليل عضو الحزب وسي رمضان بشركة المقاولات. يأتيان عصر كل يوم. يجلسان على الكنبة الموضوعة في مواجهة السرير في الغرفة الوحيدة. يمددان سيقانهما ويلقيان برأسيهما إلى الوراء حتى تستند على الحائط سراويلهما حسنة الكي والقمصان ناصعة شفيفة، وفي جيب سي خليل على الصدر يبدو مستطيل بطاقة عضوية الحزب، يشربان ويتكلمان ويتبادلان نظرات غامضة. يتقلص قلب كوثر إحساسًا بريح المؤامرة لكنها تحاول أن تصرف همها.

حينما يتكلم سي خليل يكون جادًا وحاقدًا رهيبًا. يكشر جلد وجهه الأخضر عن لثة زرقاء وأسنان لامعة يبدو أنه يدعكها بالكربونات كل يوم. الأب يتكوم على أقصى الكنبة.

عملاق له عين مغمضة والأخرى تطرف ناحية المتكلم في حذر.

حينما يتكلم سي خليل ترتجف أهداب كوثر السمراء الطويلة. أحيانا يستأثر بها القلق فتمسك طرف غديرتها من على صدرها لتلقي بها على ظهرها بأناملها الوردية الرقيقة. الدكان الآن مغلق بلا رجاء. والقمامة تكدست في المربع الصغير الذي كان نظيفًا أمام الباب. وإذا مرت كوثر بالحارة ألقت نظرة شاردة . لكن صاحبة قالت لها ألا تعود تمر من هنا أبدًا. لقد ألقوا به وراء عين الشمس حيث لا يعود. لقد كان ضد الحكومة. الأم جالسة على الحصير ترقب سي رمضان صامتة مهمومة شاحبة وقلب كوثر مقبوض.

لكن سي خليل أحيانا يبتسم. يكون فمه غريب القبح. لكن وجه كوثر يشرق حينما يطلب منها أن تسقيه. تقوم خجلى. تقوم أمامه حاملة قلة الماء وعيونها السوداء رائقة

بالسرور. يمد يده. تلتف أصابعه الطويلة حول أنامل البنت الممسكة بقلة الماء ويثبت نظراته في عينيها تغض بصرها وتسحب أناملها من تحت أصابعه. قلبها يرتجف في صدرها كفرخ مبلول. ترى في عيني سي رمضان نظرة عارفة متواطئة متآمرة. وعلى وجه الأم هلع أبيض مكتوم تعود كوثر إلى جلستها داخة خائفة.

يأتيان إلى بيتهم كل يوم. تجلس كوثر على الحصير جنب أمها مستندة على كتفها. ساقاها مطويتان متحاضنتان رائقتان كالعسل مرسومتان باعتناء. وجهها ونهداها مشوقان مرتفعان نحو سي خليل. كلماته تخيفها وتحيرها. نكاته الجنسية العارية تدغدغ حلمات أعصابها. يضحك سي رمضان. الأم صامتة ضائعة. الأب العملاق متكوم على أقصى الكنبة مستخديا مداهنا يطرف بعين واحدة.

قالت كوثر في نفسها ماذا؟ إن على البنت أن تتزوج، أن يكون لها رجل تخدمه وتعيش في كنفه، والبنت لا تصنع الرجل بيدها ولا تسويه على عينها. وكل واحد فيه عيب، ومن عيّب الرجال لم يجد أحدًا. والدكان لن يعود ويفتح أبوابه أبدًا.

ساعتها كانت الغرفة خالية والقلب تعمره الوساوس. وهي كانت واقفة أمام المنضدة التي في الركن تصنع لنفسها شايا. الماء في الأبريق يئز وموقد الكيروسين يطن. أنى لم تحس به داخلاً. كان وحده. لف ساعديه حول خصرها الرقيق. ألقت بكتفها الدقيقتين في رحبة صدره. أراحت كل هواجسها. ثم استدارت له وألقت بنفسها عليه. نهداها حران طريان ينامان على عظام قفصه الصدري. ضمها إليه بشده. حملها يمشي بها وئيدًا ناحية السرير. كانت فرحة. عيناها مليئتان حبًا. قالت له:

-تتزوجني...؟

تراخت قبضته على جسمها شهق مذهولا:

-أتزوجك.. أنا ؟

قالت له رقيقة عذبة:

-نعم.. أحبك طول عمري – أخدمك بعيني!

تركها تماما ووقف قبالها شامخاً بأنفه. عدل ثيابه. تأكد من بطاقة الحزب في جيب قميصه. كلمها حاقدًا رهيبًا:

-ألا تعرفين من أنت.. ومن أنا؟

و غامت ملامحه بسحابة اشمئزاز قاتمة. حينئذ أنشبت كوثر أظافرها في وجهه. انبثق الدم من سحجات الأظافر. صرخ وتخبط متطوحًا في الغرفة حتى وجد الباب انطلق خارجًا يجري كالمطارد وهو يصرخ كوثر تشيعه بأحدث ما

عرف الشارع من شتائم. لكن يا للأسف. إن الشاي كان قد اندلق على الأرض.

أكداس الوجوه المبقعة الشاحبة في الشبابيك. أكداس الناس على أبواب البيوت.

كوثر تمشي حزينة ناحية الدكان. إنه مغلق بالشمع الأحمر وأمام بابه تتراكم القمامة والناس حذروها ألا تمر من أمامه لكنها تمشي إلى هناك لا تلوي على شيء.

كوثر أيها الحلم الرائع. حلم الرؤوس الداخة من سخونة السقوف. تمشين على العيون المريضة. تمشين على القلوب المقهورة. لماذا أنت حزينة ماذا يهم ما ثمنه. قرش من الشاي.

• الشرطي

سي حسين الشرطي. دركه في العجوزة. الشوارع هناك هادئة. العمائر شاهقة. وحينما يطير الهواء ستائر الشبابيك الهفهافة، فإن أضواء متلألئة تسقط على أشياء صنعت كلها من الكريستال والمخمل.

هناك يسود سكون غريب، يتدفق في أوردته وشرايينه طراد جنسي عنيف. تمرق العربات مارة به بلا صوت. لا هدير للمحرك ولا دخان أسود كثيف يأتي من الذنب. عربات تمرق لينة على الأرض كالأفاعي. في داخل العربات رجال ونساء، ضحكات خشنة جشاء وأخرى ناعمة الجرس وربما لهاث مبهور وصرخات صغيرة. حسن في ركنه المعتم يتحسس غدارته الباردة. لا يكاد يشبع بناظريه عربة مارقة ماضية حتى تسقط نظراته على أخرى آتية على البعد متسللة.

وقع الخطى هنا غريب محاذر يحاول أن يتكتم خفق النعال على الأسفلت. الأشباح تقطع دوائر الضوء ثم تندفع إلى عتامة الأركان. رجال يلاحقون نساء. نساء يقتدن رجالاً بمقاود غير مرئية وتجرين لاهثات مرتجفات الخصل حسن في الركن يرقب مبهورًا . يتسمع تتضور كل خلية في جسده حنينا الصرخة لها لون خاص، جرس خاص وطعم خاص، ليست مذعورة مستغيثة، بل طاغية ساخطة مغناجة. يسرع حسن خفيف الخُطَى – هو الآخر – متجنبا دوائر الضوء في الزوايا العتمة. وجدهما هناك. نظر لها مبتسما في ود. الرجل جاوبه بوجه مشحون بالازدراء والقرف. والبنت صاحت بعصبية وتدلل:

-يا شاويش ..!

تحسس حسن بعينيه الشفتين والخدين وكحل العينين وقمتي الثديين ينحسر عنهما طوق الثوب. تسللت إلى المشهد فجأة عربة أجرة دلف إليها الرجل والمرأة وحسن مذهول جامد في مكانه. يغزه في باطف كفه إظفر طويل ويجد في يده جنيها ورقة لها رائحة خاصة يقبض عليها بشدة.

في ذلك اليوم بالذات حينما استبر حسن الشارع الكبير ملقيا بنفسه في عتامة الحارة انقض على الحزن من كل ركن حتى كاد يبكي. ضلوعه تئن حنينا للوضاءة. الكريستال والمخمل. ذلك العبير. دوائر الضوء والعتامة. الصرخات والضحكات الوسوسات في الأركان. لكن لا جدوى. بلا رجاء مشى في الحارة يخوض القمامة والروائح النتنة تخنقه.

كل صباح حينما يعود من خدمته الليلية ترسل له جارته أم آمال أختها الكبرى تحمل له طعام الإفطار. البنت مئوردة الخدين مكحولة العينين قوامها ملفوف في ردائها من اللينوه

المشجر الخفيف الذي يشف عن سروال ومشد الثديين. البنت تنظر لحسن وتطرف في تدلل:

-الفطور يا سي حسن!

ثدياها نافران من طوق الثوب.أبيضان ناصعان بطريقة خاصة. أغمض حسن عينيه. ثم فتحهما مرة أخرى، البنت تكلمه:

-هنيئًا لمن أخذ عقلك يا سي حسن !

قلب حسن ينتفض في صدره. هذه البنت لا تمت إلى هذا المكان. ترى هل تغزه الآن بأظافرها الطويلة في باطن كفه؟ تكلم متحشرجًا كأنما يأتي صوته من جب سحيق:

– ضعي الطعام تحت السرير. لا رغبة عندي في الأكل!

انحنت البنت. زحفت على أربع. يا له من وضع. سقط حسين على ركبتيه خلفها. أحاط خصرها بكفيه. هبت واقفه. هب واقفاً هو الآخر . يقفان متقابلين. عيناها مرعوبتان. أرادت أن تفر أمسك بها. أرادت أن تصرخ أغلق فمها ببسطة كفه، حينما احتوى طراوة جسدها في يديه اكتسحته رغبة عارمة في السحق. ابتسم وهو يضغط بإبهاميه على قصبتها الهوائية حتى انهارت متكومة على الحصير المفروش على الأرض.

من مرقده على السرير رآها متمددة على الحصير. الثوب منحسر عن فخذها. مكتنزة لكن وجهها غريب في عتامة الغرفة. النهار يتقدم والشمس تصعد إلى السماء تصب على السقوف الأسمنتية نارًا. يسخن السقف في غرفة حسن

ويقترب من رأسه المطروح على وسادة السرير. جسده ينضح بالعرق وخياله يختلط بالبشاعة. خنفساء تدب متمهلة مخيفة المنظر. تزحف القشعريرة على جسم الشرطي. أين يخفي الجثة.

لكن منديل رأس القتيلة الأحمر كان قد طار من شباك غرفة الشرطي. طار حلق عاليًا. أزواج العيون في الشبابيك خائفة. والمنديل حط على الأرض. أخذته كوثر، تأملته شمته، عرفت الجناية وأطلقت صراخًا عاليًا. وحينما قبضوا على حسن بكى كطفل.

لماذا أنت مقهورة يا كوثر وشاحبة كالموتى. لا يكون سوى المكتوب يا كوثر لا يكون سوى المكتوب.

• رمضان الفتك

يومها مشي حموه إليه وهو جالس مع ثلة أصحابه يلعب الورق في المقهي. هتف به رافعًا صوته فوق ضجة اللعب واللغط والمذياع.

-تعالى اشرب القهوة عندي يا ولد يا فتك..!

حدث في الضجة فجوة مساحتها شعرة فانتت على كل قلب إلا قلب رمضان حمى اللعب وحميا الشباب وطبع يري في التردد معني العدم، كل هذا دفع الفتك لأن يهتف دون أن يلحظ أحد تردده:

-تحصل لي البركة يا منصور أفندي..!

في غرفة الجلوس عند منصور أفندي لحظ رمضان بطاقة المدير على المنضدة أمامه. لم يمد يده ليأخذها قبل أن يعرف الشروط. رفع عينيه إلى الباب فإذا حسنية داخلة

تحمل صينية القهوة. كان هذا هو الشرط الأول إذن، تفرض عليه زوجة دون مشيئته. لكن لا سبيل للتراجع. سأل منصور أفندي بأدب:

-الآنسة حسنية مخطوبة أو متزوجة..؟

والرجل قال:

-البنت في انتظار العدل...!

عُيِّنَ رمضان سائقا بشركة المقاولات يسوق شاحنة محملة بالأسمنت إلى مواقع العمل في مشروع الصرف المغطى . هنا ينتظره الزبائن يبيع لهم حمولة الشاحنة. مراقب البناء في الموقع يوقع بالاستلام ويجعل نصف خلطة المسلح من التراب وينال نسبة من ثمن البيع يحصل رمضان

على حقه ويسلم الباقي لحميه عضو الحزب وسائق المدير ونائبه في مثل هذه الأمور.

كان هذا هو الشرط الثاني إذن بعد أن تزوج رمضان حسنية. وضع يده على رزمة الجنيهات في جيبه ومضى يخوض أكوام القمامة في الشارع ويحيي الناس الجالسين أمام أبواب البيوت. سيجد حميه منتظرًا على المقهى في الشارع الكبير. سيناوله الرزمة وهذا يضعها في جيبه ويلتفت بخان سيجارته ويواصل كلامه، على وجهه التكبر والتقزز والقرف. رمضان تقلب أمعاءه رائحة القمامة. شيعته حسنية حتى باب البيت بذات الوجه المتكبر المتقزز القرفان تلك الصفراء المطلية الشفتين والأظافر، ما كان ليتزوج مثلها. إنه الفتك تعرفه الدنيا كلها. ما كان ليتزوج مثل هذه الصفراء أو يعمل من الباطن عند مثل أبيها ولكنه زمن نذل. وهما يمسكانه من عرق رقبته بقبضة من حديد حتى ما يستطيع أن يلتفت إلا إذا أرخيا له القبضة.

سيقلب منصور يومًا. قلبه أسود من الغل. سيقلبه ويدوسه بحذائه ويأخذ الأمر كله في يده. إنه الفتك يعرف نفسه ونعرفه الدنيا. سيلقي بالمرأة الصفراء من النافذة ووراءها حُق البودرة والهدوم النايلون ويكون مرَّةً أخرى سيد نفسه وسيد بيته. لا يعرف كيف يتم هذا كله، لكنه حالف ولن يرجع عن عزمه.

أخذ منصور رزمة الأوراق المالية وضعها في جيبه دون أن يعير التفاته. فقط أشار لصبي المقهي أن يحضر شايا لزوج ابنته. ورمضان لوح بيده رافضا وشاكرًا وحموه لم يكرر العزومة. كيف تكون الأماسي في القهوة دون الفتك، دون صيحاته وخبطه بالورق على خشب النضد أمامه. لكنه يشتاق إلى أم كوثر، يجلس على الكنبة وهي على الحصير عند أقدامه مرتجفة مذعورة العينين. إن هذا يغسل عن قلبه مذلة النهار بين زوجته وحميه. تلفت حوله مستئنساً من رفاق

المقهى. يعرف أن خليل لن يأتي معه بعد أن خمشته كوثر أسالت دماء وجهه داري ضحكته وهو يرى خليل يتجنب النظر إليه.

هذه القطة الناعمة الصغيرة كوثر. سترقد أمها تحته يومًا مفرجة الساقين تتأوه من اللذة والوجع على السرير النظيف الملاءة وكوثر جالسة على الكنبة هالعة الوجه من الخوف والإثارة سيكون ذلك يوما. وحينما يشبع من الأم ستسقط في حجره البنت. وسيخرج يومًا من الشقة في يديه سروالي البنت والأم يلقي بهما في وجوه هؤلاء الجالسين أمام البيوت ينظرون في عجز وبلاهة وحقد.

أسرع الفتك إلى بيت أم كوثر. الوقت أول المساء ولمبات الكهرباء على أبواب البيوت تزداد كل لحظة ازدهاء دفع الباب الخارجي دخل إلى الطرقة الصغيرة أمام غرفة المسكن الوحيدة أم كوثر جالسة على الكنبة وحدها. أغلق

رمضان باب الغرفة وأطفأ النور وحمل المرأة إلى السرير. الأمر أسهل مما تصور وأروع مما رأى في كل الأحلام. وفجأة سمعت ضجة خافتة وكاد رمضان يشل من الفزع.

صوت باب المسكن يفتح. قفز رمضان من السرير واقفا وسط الغرفة. جلست الأم في السرير تشد قميصها على فخذيها. أضاءت كوثر النور لترى وجهين شوههما الفزع . ارتمي رمضان على الكنبة يبكي كالمرأة والأم قفزت تقبل رجل كوثر وتُعوِّلُ كحيوان يذبح:

-استري عرض أمك يا كوثر ..!

الكل خدعوك يا كوثر.. لم يقل لك أحد أن الدنيا هكذا قبيحة.. لم يقل لك أحد.

• خاتمة

أمي تدور ورائي حاملة حذائي ورباط رقبتي، وأنا أمام المرآة أبكي نفسي، شحوبي ومواة وجهي، عبارات أمي كعديد الذبابات، تعلقني كل يوم على الصليب وتدق أطرافي:

- يا ولدي ماتت كوثر.. ذهبت إلى هناك ورأيت أمها تبكي دمًا..! إذن فماذا؟ يصب القار في روحي حتى تتشبع به كل أخيلتي وتسود الرؤى. أمي تواصل عديدها:

- يا ولدي أهرقت الكيروسين على ثيابها وأشعلت عود الكبريت.. دخل عليها أبوها والنار طائرة فيها.. لفها في حرام الصوف وبرك عليها.. لكن النار كانت تأكل فيها من داخل الحرام..!

آه.. يخنقني الحزن حتى ما أرى .. لطخت أعلام كل الذكريات بالحداد.. وأمي ترص سطور البكائية الأليمة:

-بقت أمها جنب سريرها الليل كله وفي الصباح ماتت. في المستشفى..!

و أنا سوف أجرب موتها كل يوم وأحضر جنازتها كل مصرع حلم من أحلامي، أقرأ عليها سورة الأحد وأتلو قداس الرحمة. وأمي قدر وجيعتي المكتوب:

- يسقط لحم وجهها المحترق يا ولدي.. وأمها جنبها.. كانت البنية حلوة.. تسأل أمها وهي تحتضر.. هل أحرقت النار وجهي يا أمي؟ لا تدعيه يتأملني إذا أتى لزيارتي يا أمي خوفي أن أبدو قبيحة في عينه يا أمي.. كانت تحب الأعرج صاحب الدكان يا ولدي.. كان طيبًا. ، سحبته الحكومة يا

ولدي..! الأب أراد أن يزوج كوثر لرمضان الفتك.. ظل لحم وجهها يتساقط حتى ماتت.. كانت عروسًا كالقمر..!

لا يري أحد داخلي الرجراج كمح البيضة. ذلك بأن لي عوينات مذهبة الإطار، وإذا أتكلم أرص الكلام باعتناء. ولذلك فأنا مدعوة للشهادة. مشيت رصينًا ثابتًا منهارًا. إنني لأذكر أنها كانت إذا ابتسمت لي يولد الفرح في قلبي.

أنا مدعوة للشهادة. صعدت السلم العريض إلى المبنى القديم ثابت الخطى، ماتت في داخلي. في كل ركن يقف شرطي مسلح. وفي كل زاوية يتلصص بصاص بعينين يريان ما تحت السطوح الخارجية. بهوادة تسللت متفاديًا النظرات النافذة وصعدت سلمًا يقطع النفس. جلست على الدكة أمام المحقق.أطرافي متثلجة. أكاد أهوى وترتطم جبهتي بحرف المكتب أمام المحقق. لكنه ابتسم لي شجعني ، وأنا قلت له كلامًا كثيرًا هادئًا.

عُرض المتهمون . في أيدي مخبرين يمارسون عملهم باقتدار وعجب . يعجنون الأولاد عجناً. يسحقونهم في الأرض بكعوب الأحذية. الأولاد يولولون كالنساء آهات وحشرجات كأنهم مشرفون على الموت. لكنهم لم يسلموا سر قلوبهم. وأخيرًا جاءوا به. الأعرج صاحب الدكان. يا إلهي كيف استطاعت عيناه أن تستأثرا باهتمامي حتى ما أرى جراحه. في العينين كوثر. كوثر في العينين كأجمل ما كانت في كل أيامها على ظهر الدنيا.

قمت واقفا . مشيت خارجًا . المبنى قديم يهتز تحت الخطو. نزلت السلم وحيدًا لكنني عارف متيقن. عيال مباركون. عيال مباركون.

كوثر أيتها الحلم. من أجلك كتبت

برلين الغربية ١٩٨٢/٣/٥

عن البنات

عن البنات أحكي، عن الشعر في داخلي، عن الرؤى الضبابية المرتجفة في أعماقي، عن الشوق واللهفة والضحك والحزن والجنون، عن الحبور، عن فساتين طائرة الذيول عن شفاه ثواقة، عن عيون مفعمة بالجسارة الهشة والغزل، عن الوحدة، عن الأرق في صميم الليل الناعس .

في طريق عودتنا إلى قريتنا من المدرسة في المدينة نزلنا من قطار لننتظر على المحطة قطارًا آخر. الانتظار طويل. تحدرنا من على الرصيف نازلين نقصد الحقول. مشينا معًا إلى الجميزة العجوز. كانت تضحك مغرقة في الضحك. تداري وجهها بكتابها المفتوح في يدها وتضحك. حقيبتها تتطوح في يدها الأخرى. حذاؤها الأسود المتر ب

وجوربها القصير. ساقاها بين الجورب ونهاية الثوب عاريان. خطوها رشيق متوثب.

الجميزة تحتها مصلّي. سور طيني يرتفع مقدار شبر ويدور حول فرش من القش. أرجحت هي حقيبتها في يدها الي الأمام وإلى الخلف ثم أفلتتها. طار الحقيبة استقرت وسط فرش القش. وهي ضحكت بملقية برأسها إلى الخلف وشعرها ساقط وراء ظهرها وثدياها قبتان صغيرتان تحت قماش ثوبها المدرسي. خفت أن تسمع دقات قلبي. بهرني هدير في عروقي. اندفعت السخونة إلى وجهي.

لكنها كانت أمامي تملأ الدنيا تقافزا وضحكًا. الكتاب مفتوح وإصبعها يشير على الصفحات. أنا جالس على السور القصير الغليظ. جذور الجميزة تمشي تحتنا جسيمة نافرة. على وجه الترعة الساكن البني في ظل الجميزة تنتشر دنانير ذهبية من ضوء الشمس. فروع الجميزة الثقال فوقنا محملاً

بالورق، أوراق زرقاء متربة متجعدة الحواف. ثمة خيوط عنكبوت لا ترى، لكنني أحسها بالغة الرهافة، حريرية ناعمة، طائرة باحثة، تلصق بالرقبة أو بالوجه أو بظاهر اليد.

تقفز على رجل واحدة. تدفع بسن حذائها شفقة على الأرض مهتمة غاية الاهتمام. وجهها قاني الاحمرار. إصبعها على صفحة الكتاب. صحت بها غاضبًا:

- كفى لعبًا..!

كركرت ضحكًا بلا نهاية. تلوت من السرور مثل سمكة، ثم ألقت بنفسها إلى جواري لابدة في جنبي. أشرت بإصبعي على السطر:

-اقرئي..!

نظرت إليّ متوسلة تقرش كفيها على صفحتي الكتاب الموضوع على ركبتي. أناملها وردية. هتفت:

-اشرح لي..!

صوتها طفلي متدلل. وجنتاها متوهجتان. عيناها مفعمتان شقاوة. قلت لها:

-هات مبتدأ وخبرًا.!

انتصبت واقفة أمامي جادة. سارت رائحة غادية متفكرة وكفاها منحاضنتان خلف ظهرها. عادت وقفت أمامي تغالب الضحك. ثناياها مغروزة في شفتها السفلى. ترفع حاجبيها تدللاً ومكرًا. تقول:

- لا أستطيع..!

أعرف كيف يخفق قلبها تحت ثديها الأيسر، حجرات القلب الأربع، الصمامات وتدفق الدم من الأوردة إلى الشرايين. درست ذلك. قلت لها بأناة وحكمة:

-قولي مثلاً... حمدي ضخم..!

دهشت. سكتت مبهوتة. روعها ذلك التعبير الحقود على وجهي. تساءلت هامسة:

- من حمدي هذا..؟

غرست كلماتي في لحمها ببرود ساخر قاتل:

-حمدي .. هو ذلك الذي نمت في بيته بالأمس..!

بدأ اللون يهرب من وجهها رويدًا. ارتجفت شفتاها وهي تهمس:

– لا شيء من هذا.. إنما قالت لي ماما احملي هذا الثوب إلى امرأة خالك في المدينة واقضي الليلة عندها تستريحين من السفر يومًا.. نمت مع امرأة خالي في السرير.. هو كان في الغرفة الأخرى.. لا شأن لي به.. حتى لم أتبادل معه كلمة.. لم تكن هناك مناسبة..!

كان وجهها قد صار أبيض شمعيًا مثل وجوه الموتى وتهدلت خطوط جسمها مثل ثوب قديم. مالت تتناولت حقيبتها. الكتاب مغلق تضم عليه يدها الأخرى. تركتني وسارت دون أن تنظر ناحيتي. تكور الندم في حلقي يكاد يخنقني. لحقت بها:

- من فضلك..!

لم ترد عليّ. بقيت سائرة خطواتها ثقيلة وقدماها يخفان بالأرض والحقيبة تميل بكتفها. ألححت عليها:

-أنا لم أقصد..!

دموعها انهارت على وجهها. لا تنظر ناحيتي. أضم قبضتي وأفردها بعنف:

-أرجو أن تفهميني..!

عيناها كأسنان من دم. المنديل منكور مبلول في يدها. حبات العرق خضلت منابت الشعر على جبينها.

نحن ننتظر القطار الذي سيأخذنا إلى قريتنا. رحلة العودة بعد نهار صاخب مترب ابتعدت عني مختلطة بالناس الواقفين في الانتظار لا أستطيع أن ألحق بها وأكلمها وسط الجمع عيناي تسرحان مع قضبان القطار إلى بعيد. لم يأت بعد . رفست بسن حذائي زلطة على الأرض طرحت بها بعيدًا.

•

وضعت قلبي في خطاب أرسلته إلى القاهرة. قلت لصديقي أن كل ما حولي أسهم تشير إلى أسفل، وأنني أهيم وحدي في الليل وأن الظلام، ظلام الليل الريفي أسود ثقيل مسيطر تئن تحته الجنادب وأنفاس النائمين والرؤى المريضة الشائهة المجنونة.

•

كانت آتيه توًا من عند الكوافير يسبقها عطرها، عطر مصري رخيص. وجهها لامع بالدهان، وشفتاها قرمزيتان باللطلاء.عيناها آيتان، بنيتان مكحولتان في وجهها الأبيض الوردي، مثل عيني دمية غالية.

وجهها الأبيض الوردي، مثل عيني دمية غالية.

هي وصديقتها ملأتا بيتنا صخبًا. تسلمان، تسألان، تضحكان،. حريصة على ألا تتلف تسريحة شعرها تهز رأسها في خيلاء وفرح وخصلاتها الذهبية ترتجف في اتساق.

أنا على سريري قبالة باب غرفتي المفتوح متمدد في العتمة أتفرج على المشهد في الصالة كأنها خشبة مسرح. أعرف أنها لن تبادر بالسؤال عني. ساقي ممدودة على وسادة لا أجرؤ على تحريكها وإلا انطلق ذلك الألم المتكور فوق الإبهام جحيما يتأجج في الساق كلها.

الدمل في إبهام رجلي متورم ملئ بالصديد .نبض الألم في جسمي منتظم الإيقاع بلا تردد . أنا دائخ محموم. هزة واحدة وينطلق الألم كنباح كلاب مسعورة ويتصبب جبيني عرقا ويكاد تزهق روحي.

أعرف أنها لن تبادر بالسؤال عني، إنني محموم ملئ، بالقنوط والتقزز والغثيان. لكنها سوف تسأل. كل من حولها يتوقعون منها ذلك، يحاصرونها ويدفعونها إليه.

ها هي:

-أين هو..؟

قالوا لها:

-معتكف .. مريض..!

تصورت أن العيون تبتسم لها وأنها تمضي إلى غرفتي تدوس على الابتسامات الماكرة. جاءت إلى تحسست جبيني. كفها بارد ندي بالعرق. جثن كلهن وراءها وقفن حولها يحطنها بعيون مبتسمة، قالت:

- جبينه دافئ قليلاً..!

اتسعت الابتسامات حولها. رفعت كفها بسرعة وبدأت تمسحها بمنديلها. أرقب العيون تحاصرها ونبرتها تتوتر قليلاً. كلمتني:

-لكن الأمر ليس خطيرا.. أنت فقط تتدلل..!

ثم هبت واقفة وانطلقت خارجة وهي تهتف:

-فلنتركه وحده..!

و خرجن جميعًا إلى الغرفة الأخرى. أغمضت عيني على نبض الألم في جسمي. يأتيني لغطهن من الغرفة الأخرى. هي أعلاهن صوتًا، حادة ضائقة، تتكلم جملاً قصيرة عصبية واضحة حاسمة.

بدأت المسألة بيني وبينها ذات مساء في عرض مسرحي. أضواء وحبور ونساء معطرات معنيات بوجوههن. حينما أطفئت أضواء القاعة تسللت يدي إلي ما تحت بلوزتها. تحسست نعومة قميصها وطلاوة لحمها. غرست أظفرها في يدي تذودني وهي تتنفس تنفسًا سريعًا مسموعًا. وحينما زارتني للمرة الأولى اصطنعت رقة متناهية ورجوتها أن ترتب مكتبي. فعلت هذا باهتمام وأمومة . تفكرت وأنا سائر إلى عملي في الصباح أنها عذبة وجميلة العينين.

لكنني الآن دائخ فاتر محموم. لغطهن يأتيني من الغرفة الأخرى. اقترحت واحدة أن يذهبن لزيارة صديقه. أما هي فأعلنت في جملة قصيرة حاسمة أنها ستبقى إلى أن يعدن. حينما انصفق الباب وراءهن حل الصمت. أخذت هي كتابًا وجلست على كنبة في الصالة تقرأ. من مكمن أتأمل ساقيها بيضاوين جميلتين وحذاؤها جديد رخيص. فجأة قامت أقبلت عليَّ. وضعت كفها على جبيني:

-مازلت دافئًا...!

أمسكت يدها شددت قبضتي، عليها، جذبتها دسستها في ثيابي:

-من هنا حرارتي أعلى..!

جذبت يدها فزعة. قالت مرتبكة كأنما تلقي محفوظًا أمام مدرس في الفصل:

-لا يجس أحد حرارة المريض من هنا..!

انطلق نباح الألم المسعور في جسدي. انكفأت على بطني أعض الوسادة بأسناني. ساكن تماما أنتظر تراجع دفقة الألم. مددت يدي أدسها بين ساقيها:

-أجس حرارتك..؟

نحّت يدي بقوة:

-أنا لست مريضة..!

مددت يدي إلى صدرها أدخلها في طوق ثوبها. أمسكت بمعصمي تمنعني. قبضت بشدة على ياقة ثوبها وجذبتها

نحوي لأقبلها. إذا اقترب وجهها مني تقززت من طلائها ومن عطرها. قبلتها في رقبتها دون اشتهاء وهي تتنفس فحيحًا. أطلقتها وهي زفرت غاضبة:

– ما هذا..؟

قلت في برود:

–هل ضايقك هذا..؟

–طبعًا..!

–إذن اغربي عن وجهي..!

–سأمضي ولن أعود مرة أخرى!

– أحسن..!

قامت إلى أريكتها وأخذت الكتاب في يدها. أكاد أبكي من ألمي. أمزق الملاء والوسادة بيدي وأسناني. أكاد أتقيأ أمعائي من قرفي منها وعلمي أن تهديدها فارغ وأنها ستأتي مرة أخرى. جاءت. وقفت جنب سريري ساكتة:

-مازلت دافئا..؟

لم أستخلص من رنة صوتها أي معنى. كدت أصـــرخ سخطا عليها. قلت لها ببرود:

-تحسسي بنفسك..!

وضعت كفها على جبيني. قلت بنفس البرود:

-ليس من هنا..!

قالت بصوت عال كأنما تنهي إليّ معلومة خطيرة:

-لا يجس أحد أبدا حرارة المريض من هنا..!

انفتح الباب ودخلت الباقيات. امتلأت الصالة صخبا مرة أخرى. ذهبت هي انضمت إليهن. وحينما استأذنت لتتصرف

لم أعن باستيقائها. لم أعن بأن أواعدها. كنت واثقا أنها ستأتي من نفسها مرة أخرى. لكنها لم تأت. لم تأت بعد ذلك أبدًا.

•

قلت في الخطاب الذي أرسلته لصديقي في القاهرة إنني انطلقت في الشوارع كالمجنون طائرًا على صخب الآلات المروع. كل آن ألهث في مسماع التليفون صارخًا. أؤكد أن المسألة لا يمكن أن تكون هكذا. وأنني بذلك أفقد فرصتي، أموت، أختنق في غرفة غاز فسيحة. التقطت أذني من مسماع التليفون أصواتًا باردة رصينة معاتبة لائمة، متعالية متهمة. يومها عرفت أن الأمور صعبة. فلنصبر. ولنشكر الله أننا نعيش. كانت كلمات خطابي لصديقي دامعة.

•

انطلقت العربة على الطريق الزراعي في نهار رائق. أجلس بجوار النافذة. كل آن نلحق بشاحنة كبيرة.

يدور إطارها الهائل جنب شحمة أذني يهدر ماحقاً مثل حجر الطاحون. يقبض الرعب على قلبي حتى نتجاوز الشاحنة فأزفر مرتاحاً.

هي تجلس في المقعد الأمامي. قصة شعرها غلامية تكشف عن رقبة جميلة طالعة مما بين الكتفين في اتساق آسر. لكنه يجلي إلى جوارها ذلك الآخر العريض الكتفين الحليق الرقبة. اهتمامي مركز بقوة على تلك المسافة بين كتفيهما، لو ضاقت ملليمترا واحدا في محاولة منه للاقتراب منها، فربما انقطعت أنفاسي حقدا لكن المسافة المرهقة بينهما باقية لا تنتقص من أطرافها.

راكبان شابان نحيلان أبيضان لا يكفان عن الثرثرة. صوتان دافئان مستبشران. أحدهما تقلع طائرته فجر غد والآخر يصحبه مودعاً. يهمسان ضحكات عميقة

السرور. أيديهما تتحسس متاعهما القليل الرشيق. الركاب يحيطونهما بصمت كامن متسائل.

في الطريق مالت بنا العربة على ظلـــة ممـــدودة. راحة قصيرة. تبعثر الركاب حول طاولات المقهى. أمـــا هي فقد بقيت في مكانها لا تريم. اقربـــت منهـــا ممتلئـــا شهامة ونبلاً.

- ألا تنزلين لتستريحي قليلاً..!
- متشكرة..!
- أترغبين في شيء أحضره لك..!
- شكرًا..!
- عفوًا..!

مشيت ممتلئاً رضا عن نفسي، وجهها و عيناها و استعتان مكحولتان. يا إلهي. وجه ممتلئ بالسلام والصفاء و الوسامة مثل رسم في كتاب قديم.

و صلنا إلى المدينة. ميدان المحطة حولنا يهدر بالصخب. كل راكب يخرج حافظته ليدفع للسائق الأجرة. فتحت هي الباب بجانبها ونزلت. من نافذة العربة بجواري أدخلت رأسها ونظرت إليَّ. بين أنفي وأنفها ثلاثة سنتمترات. عيناي امتلأتا بلون وجنتيها وحلاوة عينيها. همست لي:

-ممكن تدفع الأجرة عني..؟

جفلت برأسي إلى الخلف:

-لأ..!

عيناي تحدقان في وجهها الوسيم تفتشان عن سر تلك الجسارة الباردة الواثقة:

-آسف جدًا.. لم أحتط لمثل هذه الطوارئ..!

انسحبت متراجعة لم تختلج في وجهها عضلة. أرقبها من خلف الزجاج فرحًا لأنها لم تستغفلني وتضحك عليّ. تقف ثابتة معتدة بنفسها أمام ذلك الشاب المسافر بالطائرة غدًا. تحرك شفتيها بهمساتها يخرج هو من حافظته ورقة نقدية كبيرة ويعطيها لها في وداعة وحياء. دفعت أجرتها ومضت تسير في الميدان ثابتة الخطوة. فتحت باب العربة ونزلت مسرعًا ألحق بها:

-إلي أين..!

-شارع البحر..!

-في طريقي..!

-...!

- تسمحين لي أوصلك..!
- شكرا..!
- تلك هي عربة أجرة..!

-طيب..!

نظرت خلفي . ما زالت حافظة النقود مفتوحة في يد الشاب المسافر. ينظر في أعقابنا بعينين عبيطتين. أخذتها من ذراعها وجريت نحو عربة الأجرة المنتظرة.

هي الآن في حوزتي. تنفست الصعداء في مقعدي. ضحكت لأن السائق أمامي يتحرك حركات فاقدة الاتساق أمام عجلة القيادة. الأشياء رائعة ومليئة بالفكاهة أحيانا. سوف أحيط الثمرة بكل العناية حتى تسقط بكل بهائها في حجري. ركبتاها عاريتان بجواري ليس فيهما عظام ولا

خطوط متكسرة ناقرة. بل انحناء ينساب في نعومة ورقة. بالوسامتها وجلالها. مسافرة دون مليم في جيبها، وعلى وجهها كل ذلك الوقار كأنها وليٌّ صالح لا يملك إلا التوكل على الله. وشوش الضحك في صدري كأجنحة العصافير:

-نميل على بيت عشر دقائق.. نغتسل.. نستريح قليلاً.. ثم أوصلك..! قلت ذلك وتحفزت لخوض معركة طويلة لإقناعها بالفكرة. لكنها قالت بكل بساطة:

- لا مانع..!

- على اليمين يا أسطى..!

أعطيت السائق أجرته مشيت بها ندوس على العيون التي تحدق فينا. جسدان متعارفان متساوقا الخطوة كأنما ألفا السير معًا سنين طويلة.

صفقت باب مسكني ورائي. هذه هي شقتي فرحتي الصغيرة القريرة. لكم هي مثرية، كأنما تأسى لأنني هجرتها طويلاً. تلفتت أبحث عن الفتاة. ها هي ذي تجلس على كرسي إلى طاولة الصالة. ابتسمت لها. ها أنت يا أختي الصغيرة في بيتي، في كنفي، عليك أن تتقدمي الآن إلى مثل هرة صغيرة أليفة وتلبدي في حضني. سوف أربت عليك، أمسح على أكتافك المستديرة، على رقبتك، على صدرك الطالع في شقاوة متوثبة طفلية خجلي. سوف أضمك إليّ، أريح خدك العاري على رقبتي المسكينة، أعتصرك بين ذراعي، أجعلك تغمضين عينيك على ارتجافات مدهشة وتغوصين في الزمن إلى آماد سحيقة:

-ألا تغسلين وجهك..!

نظرت إليَّ. عيناها حلم. كل شـــيء ســـاكن. الصـــور المترية على الجدران تطل في فضول قامت مترددة تنظـــر حولها باحثة. يا إلهي كم هي رائعة القوام:

-الحمام على اليمين. لكنك سوف تبلين ثوبك.. انتظري أحضر لك قميص نوم..! جريت إلى غرفة نومي. أخرجـــت من خزانة الملابس قميصا عاري الكتفين. طوحت به ســـقط في يديها ضمتهما عليه. ونكست رأســـها ســـاكنة ضـــحكت بصوت عال من حيرتها:

-يمكنك أن تدخلي الغرفة وتغلقي على نفسك..!

ثم مشيت تجاوزتها جلست على كرســـي إلـــى طاولـــة الصالة. دخلت هي الغرفة وردت الباب وراءها. حقيبة يدها أمامي على الطاولة. فتحتها. ليس فيها شيء. ليس فيها شيء على الإطلاق سوى إصبع طلاء الشـــفاه وقلـــم الحواجـــب

ومنديل متسخ. إلى جوار الحقيبة كان ثمة شيء ملفوف في ورقة جريدة. فضضت اللفة. وجدت قميص نوم النايلون الأحمر. دق قلبي بقوة أى فتاة هذه. حدقت بقوة في باب الغرفة المردود ببني وبينها. هي تخلع ثيابها وراءه الآن. قمت مندفعًا نحو الغرفة. دخلت وجدتها عارية تماما. صفقت باب الغرفة خلفي. طوقت كتفيها العاريتين بذراعيّ ضممتها إليّ. صدري يكاد ينفجر من دقات قلبي. تتملص مني وأنا أحكم ذراعي حول خصرها. ألهث بقوة. أمرغ وجهي في عري رقبتها. تدفعني في صدري. ألصقها. أعضها أحملها مندفعًا بها إلى السرير.

فجأة وبحركة بالغة العنف انفلتت مني قافزة بعيدًا مثل نمرة. وقفت في الركن تنظر إلى بعينين شرستين. رفعت إصبعها مهددة وهي متوهجة الوجه ثائرة الشعر.

-إذا اقتربت مني صرخت حتى يأتي الجيران..!

أدركت أنها جادة تمامًا وأنني إذا اقتربت منها خطوة فإنها سوف تصرخ حتما. جلست على السرير مغمضًا عيني على سعار كالجنون وأنا أهمس:

-طيب..طيب..!

أحسست بها تخرج. فتحت عيني رأيتها تسير إلي الحمام مرتدية قميص النوم الذي قدمته لها.

أراه معلقًا من شريطين رفيعتين على كتفيها الرائعتين. قمت متثاقلاً إلى المطبخ أتأمل شعلة موقد الطهي. أنصت لهسيس الماء الوشيك الغليان في إبريق الشاي. حزين مثل طفل يسافر والداه ويتركانه وحيدًا.

عدت بالشاي. وجدتها ساكنة على كرسي في غرفة النوم. وضعت الصينية على كرسي آخر وجلست على السرير. صمتنا ورشفات الشاي المتباعدة. أنهت كوبها ووضعته بهدوء ثم رفعت إليَّ وجها مغسولاً رائع العينين وهمست:

-أريد أن أرتدي ثيابي..!

شملني حزن صوفي بعيد الغور.. قلت همسًا لا يكاد يسمع.

-سأبقي هنا .. لا تخافي..!

قامت متمهلة. انحنت قليلاً. تناولت ذيل قميصها. جذبته إلى أعلى. مالت خصلته من رأسها. مدت ذراعها بالقميص أراحته على مسند المقعد. ارتجف ثديها ارتجافة رقيقة من

حركتها ثم سكن. في داخلي حشرجة وانية ونحيب حارق ونهر من دموع. اتجهت إلي المشجب لتأخذ رداءها. همست:

-ابق هكذا قليلا..!

وقفت. استدارت لي. قمتُ. ركعتُ على ركبتي أمامها. نظرتْ إليّ بعينين جميلتين لا تطرفان. أغمضتُ عيني دفنتُ وجهي في طراوه بطنها محيطًا خاصرتها بساعديّ. هي وضعت كفيها على كتفيّ فتحت عينيّ مشرعًا وجهي لأعلي. قمتا تدبيها سمراوان يدور حولهما زغب رقيق. عيناي تلثمان في وجل تصعدان إلى صفاء عينيها. نكستُ بصري. أمسكتْ هي بذراعيّ تنهضني مثل قسيس يمنح الغفران لمسيحي مؤمن. ثم مشت إلى المشجب ارتدت ثيابها. خرجت إلى الصالة أخذت حقيبتها من على الطاولة. كذلك قميصها الملفوف في ورقة جريدة. نظرتْ إليّ. هزت رأسها مودعة. فتحت الباب. خرجت. أغلقت وراءها برفة.

•

قلت في خطابي لصديقي أن السرير في الزنزانة كان صدئا شائها معوجًا، وأن جسدي كان متقوسًا يعنف، وأن الحيطان كانت محدقة، مهولة بالليل والظلام ورسوم خرافية داعرة وكلمات ملتوية الحروف ترقص رقصا همجيًا وتقول أكثر الأشياء كفرًا وجسارة. وأنه من بعيد تأتي إليّ صرخات ممتلئة رعبًا وقهرًا ومهانة وعارًا، وكانت تأتي إليّ ضحكات، جشاء كالخناجر. وكان الليل يدور بي في جنون. ليل أسطواني مفرّغ ليس له قاع. أسقط وأهوى، أهوى بلا نهاية. كان كابوسًا مروعًا.

أنا رب هذا القطيع، هم أهلي وأقاربي. دعوتهم من القرية ليكونوا ضيوفًا عليّ في بيتي في المدينة. فرحون بي. يفرشون لي الاهتمام والمودة فأدوس بحذر. أنا بينهم مثل نبي صغير طيب حكيم رصين. لكنها هي كافرة بين المؤمنين. وجهها يحمر من ضحكها المكتوم. عيناها تبرقان شقاوة ولعبًا. فاجأتني جسارتها. فاجأني نماؤها. يارب الغضب كم كبرت. الجلباب الريفي من الحرير الأسود ينسدل على استدارة وامتلاء مذهلين. كأنها فرس رائعة. بنت الأمس هذه. لكنهن البنات. تغمض عينيك عن الواحدة ثم تفتحهما فإذا البنت قد تخلّقت امرأة رياشة متفجرة العود. بدأت أعتاد قلة تهيبها مني، يملأ قلبي ضحكًا وجهها الطفلي وعيناها المفعمتان شقاوة.

تفرق جمعنا. انحشرنا في القطار المزدحم متباعدين منسين بين أكداس الخلق. تعالت صيحاتنا من هنا وهناك حتى اطمأن كل فرد منا

أنه استعاد صلته بالقطيع. علا صوتي منبهًا ألا يحاول أحد دفع أجرة الركوب. هذا واجبي نحو ضيوفي. عارض واحد هنا وآخر هنا معارضة فرحة تحاول فقط إثبات دوري وقيادتي.

هدأ الهرج وانتظمت سرعة القطار وسادت كتلة الراكبين سكينة متوجسة. إنصات شامل لبحات قلب القاطرة الفولاذي ذات الإيقاع الحاسم المتجهم. أنا شارد. روحي تبحث في ذلك الإيقاع الساحق عن لحن ما. لحن شرس غجري مفعم بالحزن والبسالة. عيناي منطلقتان في تلك المهمة المظلمة خارج النافذة تبحثان عن ضوء وحيد.

فجأة أحسست شيئًا. جسد البنية مرتكن على جسدي.! اجتاحني توتر حاد. عاصفة باردة اكتسحت كسلي وشرودي. أصبحت يقظًا كشفرة مرهفة. ماذا..؟ هل قصدت هذا..؟ هل هذا ممكن..؟ أرجل حشرية ميكروسكوبية تمشي في جسدي تدب دبيبًا مصممًا لا يرحم. أي خطأ في الحساب يسقطني في الفضيحة، يمرغني في الوحل، يجللني بالعار.

وصلنا. الركاب يدبون طابورًا بين صفي المقاعد نازلين. هي أمامي. وضعت يدي على قمتي كتفيها. اقتربت منها حذرًا مترددًا. استعجلت ترددي داقعة حجم ردفيها ليلبد في حضن فخذيَّ بلا أدنى خطا في التصويب. تراجعت مرعوبًا ارتعد بعنف يكاد قلبي يقف عن الخفقان. لو سبقت سياق استجاباتها ملليمترا واحدًا فإنني أسقط في هاوية سحيقة.

طول الليل لم أنم. يقظ العينين في الظلام الحالك. من بين جميع النائمين يصلني صوت أنفاسها وتقلبها في مرقدها. ماذا..؟ أتقصد ذلك حقا..؟ هل هذا ممكن..؟ خائف إلى النخاع، وفرح إلى النخاع.

وطول النهار لم أفلتها. عيناي عليها. يداي عليها. ألمسها. أمسكها. أدفعها في كل موضع. تميد. تتلوى. تقفز جارية. خفيفة ضاحكة ضحكًا مكركرًا مجلجلا من قلب لم يعرف بعد كدرًا.

قد أموت موتًا حقيقيا بلا مجاز. قلبي يكاد يقف. نفسي يكاد ينقطع. لكنني سوف أعرف الآن حالاً. غير ذلك لا يعنيني أمر آخر. خالست انتباه الجميع مقامرًا بكل شيء. جذبتها اندفعت نحوي مشرعة صدرًا عمره أربعة عشر ربيعًا.

كنزًا من الخصوبة. مغمضة العينين مفتوحة الفم تلمع ثناياها. تتلوى في حضني. تهصر صدرها في صدري. أقبلها تخمشني. أسنانها تصك أسناني مجنونة أو مجذوبة. شفتاها. أسنانها. ريقها. فتوة جسدها.

ثم قفزت مبتعدة. نظرت إليّ مهتاجة الوجه ثائرة الشعر. زفرت زفرة عالية فرحة. طفلة وجدت كنزًا. أطلقت ضحكًا مكركرًا صافيا طويلاً. جرت تركتين جامدًا في ركني. أقف بعد قليل. سويت ثيابي. مشيت أدور في البيت ثقيل الساقين لا أعي ما حولي تماما ولا أعرف ما إذا كنت أحلم. انفردت بها من جديد:

- قولي لي..!
- عن ماذا..!
- عن القطار..إنك، ارتكنت عليّ..!

ضحكت ضحكا عاليا متواصلا وعيناها مغمضتان شقاوة. شهقت:

- أنا...؟

ثم فرت هاربة. لاحقتها، لا أعي غيرها:

- قولي لي..!

- عن ماذا..!

- حينما قبلتك.. غضبت؟

صرخت دهشة:

- أنا..؟

يا رب الأشياء كلها أريد أن أعرف. أريد فقط أن أعرف. لكنها أطلقت ضحكها العالي ثم خطفت نظارتي وجرت. جريت وراءها دون تفكير. لا أستطيع اللحاق بها. أجرى أطاردها.. تفلت مني كسمكة. البيت عاصف بالضحك. انطلقت خارجة من باب الشقة. أسرعت وراءها. صعدتْ سلم البيت قفزا قفزتُ خلفها. ضحك الناس يبتعد. بخلت غرفة الغسيل على السطوح. استدارت واجهتني تقدمت منها لاهثا أكاد اسقط إعياءً. قبضت على ذيل ثوبها وملصته عنها. تخلصت من الثوب وعادت منتصبة أمامي عارية فارعة لاهثة متوردة. ألقيت بثوبها على الأرض. أخذت قطع الملابس المنشورة على الحبل ألقيت بها على أرض الغرفة أصنع فراشا. رأت ذلك أغرقت في الضحك مغمضة العينين مائلة الرأس. جمدتْ مترددًا. ألقت بنفسها عليَّ منحية ترددي. نزعت عني جلبابي. احتضنتني عاريا إليها. تعتصر من كياني كل ما فيه من وجد.

نزلت السلم تجري وأنا أجرى وراءها. الناس يستقبلوننا بالضحك المجلجل. هل يحتفلون بعرسنا. تجرى وأنا في إثرها. في الأركان نتحاضن. خلف ظهور الناس نقبّل. نلعب. نلعب لعبًا خارق الحيوية والإمتاع يهصرني، يطهرني، يعيدني إلى البهجة السليبة.

•

ومازلت أحيا. تملأ الرياح قلع مركبي. في الصباح أبتسم لطلعتي الوسيمة في المرآة. ثم أخرج. أشرع وجهي للذعة البرودة الصبحية. يتدفق الشعر في داخلي. العالم ملئ بالبنات. فساتين طائرة الذيول. شفاه تواقة. عيون مفعمة بالجسارة الهشة والعزل. كانت خاتمة خطابي لصديقي فرحة.

•

برلين الغربية ١٩٨٢/٣/٢٥

شجرةُ الحبِّ

- **الأم**

بائعة البلح. امرأة شامخة، أثيثة الشعر، تكاد تدرك غدائرها عجزها. عيناها صحنا عسل، شباكان مفتوحان على المتاهات الغريبة. وهي امرأة لينة الصوت مبتسمة ماكرة.

يقولون إنها متاع متاح، وإن من له زند وحبل وقلب جسور قادر على أن يجتني شهدها. أما هي فإنها ميادة، تدور تنادي على بضاعتها، تملأ القلوب بالحنين إذا عبق الكون بغبار فضي شفيف واستضاء القمر وترقرق الأسى كالخرير لا منطلق له ولا مستقر، ونامت الظلال السمراء على اخضرار الضوء في الحارات. حينئذ يسمع وقع قدميها. ومن الرؤى المنسحبة إلى أبعد الأغوار يأتي صوتها:

يا من يجيب القناني يا بلح..

يا خد العسل منك..!

وإذا تخلد الأشياء حولها للسكون في غرفتها، ويتكسر ضوء المصباح الشاحب على بلادة الجدران الطينية في هزيم مكتوم، تنزع عنها قميصها. تلصق على فمم الأكتاف الناصعة الرخصة العرقانة ذوائب من دفقات الشعر الليلية السوداء. العينان جناحان محلقان اشتياقا. الثديان ناعمان ناعسان مكدودان انتظارا.

أحشاؤها تنوح شوقًا. تقتم عيناها عذابا. تحلم برجال وجوهم مذبوحة بخطوط الدموع على صدرها، تسقي حرقتهم من بئرها، تخبئ مخافتهم تحت جناحها الظلال السمراء على الحيطان تسقط هاماتها مذلة وكمدًا.

حتى يتسلل ضوء الصبح من الشقوق عيونا طفلية متلصصة خائفة. تلقي قميصها على نفسها. تقوم. تخرج إلى النهار. تعانيه إلى المساء. المساء الريفي في قيعان حارات مفروشة بمربعات الضوء القمري الأخضر. على واجهات دور طينية تتهدل عليها ذوائب الحطب، تنصت لخفقات الشبشب على تراب السكة.

تنادي على بلحها، تغني لبلحها، تغني أشواقها. الحنان الذي بلا حدود يعمر قلبًا وذراعين رخصتين ممتلئتين.

- **الولد**

لم يودع قدميه أبداً صون الحذاء، مفرطحتين غليظتين، علمتاه السير الجسور. يسير وسط الطريق ولا يتسكع جنب الحيطان ولا يتخذ سكة مطروقة وطأتها له من قبله الأقدام.

لم يرتد طول عمره سوى جلباب وحيد مهلهل لا يداري من جسده شيئًا. لم يتعود لحمه رفه الحزن تحت طيات الثياب الثقال. جلده أسمر خشن جاسر مثل ظاهر اليد وباطن القدم. جسده لم يعرف الخجل، أو الرجفة من اللمس، أو التهيب من النظرة معروض على العيون كالكلمة الوقحة العارية الجارحة الواضحة المقاطع والمقاصد.

لم يصدق أن في الليل عفاريت. ليله لم يكن أبدًا غرفة دفيئة مضاءة محكمة الإغلاق. لم يهدهده للنوم صوت حنون

مرتجف بالخوف يحكي له الحكايا. كان ليلة دائمًا عاريًا شاسع الجنبات فارغًا ترن فيه الأصوات كما ترن في علبة من الصفيح، ليلة بلا مخاوف وبلا أحلام نجماته مرتجفات تحدق في دهشة وغباء.

و كلما اجتمعت حلقة العيال في المساء، وانشغلت قلوبهم بالمخاوف، وتعذبت ملامح الوجوه وتفنجلت العيون مبهورة بزؤى موهومة، كان يجلس بينهم وحيداً، خوفهم لا يصك قلبه. يتلفت حواليه متسائلا أبله غير مصدق. ثم ينهض كاسرًا إطار عزلته. يغرق في صخب اللعب حتى يسقط العيال حوله إعياءً وهو أبقاهم عنفًا وأعلاهم صوتًا، وأكثرهم توحدًا. يضرب، يشتم، يخالف، يجرب أكثر الأشياء خرقًا، والعيون حوله ترمقه إنكارًا وتخوفًا وهو تطوقه الوحدة إلى الاختناق.

و حينما يوغل المساء يئوب العيال. يعودون إلى الدور في قيعان الحارات، إلى غرف تضيئها مصابيح راقصة الشعل. تملؤها أنفاس دافئة وروائح دسمة، أو ربما منتنة

زخمة. يضحك. فهو لا يعرف الرجوع. داره حيث يقف يدق قدميه. وحيث يريح ظهره غرفته. وفراشه مصطبة جنب جدار في جوف ليل شاسع نجومه خرساء لا تقول فيغمض عينيه. لا يخاف. لكنه يشتاق لو يدخل في ركن دافئ حنون. لو يدفن وجهه في صدر ملئ بالحب. لو يجرب الاحتضان. لو تحيطه من وحشة اليتم. تنحدر دموعه سخينة.

• شجرة الحب

– ما هذا يا ولد..؟

– سجرة الحب..؟

الكلمة هكذا، من غير ثلاث نقاط، ناقية جاسرة غريبة. نظر العيال إلى وجه الولد مذهولين. صعّرَ هو خده لهم وشمخ بأنفه عليهم. تحلقوا حوله، عيونهم معلقة بجيبنه. يتدافعون يتزاحمون يريدون أن يعرفوا، وهو قائم بينهم كتمثال معبود. هتف واحد من العيال ملهوجا مشروخ الصوت:

- وكيف..؟

تقدم الولد إليهم برصانة. انبعجت حلقة العيال منفسحة تجاه خطوته. أخذ التقية الصوفية الحمراء من على رأس الصغير:

-هكذا..!

كوّر التقية في قبضة يده اليمين. استل منها ثنية صغيرة بين إصبعيه. أزاح مؤخرة رأس الصغير في كفة الأيسر. أقبل على الجبين يحكه بثنية الصوف. صنع فيه سحجة مستطيلة تمتد مما بين الحاجبين صاعدة حتى منبت الشعر تتندى بسائل شفيف يميل إلى الاصفرار.

وإذا كان قد انتهى فإنه طوح بالتقية التقطها الصغير وهو يتحسس جبينه الملتهب غير فاهم شيئا. داخ العيال بين الجبين المشجوج والولد المبتسم في استعلاء عيونهم مفتجلة دهشة. يسألون:

-ولا شيء أكثر..؟

وفي الصباح كانت السحجة قد طابت وصار لونها بنيًا قانيًا. وفي الصباح كانت جباه مشقوقة بسحجات بنية تمتد مما بين الحاجبين إلى منبت الشعر. على كل جبين شجرة حب. وجوه عالية الأنوف مجتمعه ماضية. تحلقوا في الأماسي يتكلمون في عذوبة القمر. أصواتهم رصينة وأحاديثهم شجية عن:

-سجرة الحب..!

الكلمة رائعة. والحب صوت ذو أصداء، أصداء مبهمة آتية من آفاق ضبابية محاطة بالمخاوف والارتجاف. ارتجاف يود القلب – من وراء الوعي – أن يستعيده، يجتره ويستطعمه.

- **عن الرجال**

و جوه العيال حيثما نظرت نحيلة رقيقة شاحبة غضة. عيونهم واسعة دعجاء كثيفة الأهداب تملأ القلوب حنانًا. لكن الجباه إذا تشق بهذه السحجات البنية، عن الرجال إذن يرتابون، تغيم آفاقهم بسحب الخوف.

و حينما تسخن الشمس في الضحى، وتتلوى البهيمتان تحت النير في محاولات أليمة، وسلاح المحراث يشق الثرى الهش، والرجل من فوق كل هذا يفرقع بسوطه في الهواء قادرًا مسيطرًا..

و حينما يترقرق ضوء مصباح الكيروسين الملمع الزجاجة ساجيًا حالمًا متعاليًا على صخب وسط الدار في العشية وقد تحلق الجميع حول قصعة الطعام متربعين، والأب الكبير في الصدر كتفاه عريضتان عاليتان ممتلئتان قوة...

وحينما تسكن كل الأشياء في قلب الليل، وتعبق الغرفة برائحة عرق أجساد النائمين المفروشة على ظهر الفرن، وتتردد الأنفاس في نظام مستسلم مريب بعيد الغور. حينئذ تترقرق في قلب الزوج، في الفراغ المكبوس بالظلال رغبة

كالخاطرة الحزينة. يمتلئ خوفا. تتسلل يده إلى إمرأته، تزحف الأصابع على طراوة اللحم. لدانة ساخنة مطاوعة مبلولة مخبوءة تحت طيات تكتم خائف متأثم...

الحياه المشقوقة بتلك السحجات البنية مما بين الحاجبين إلى منبت الشعر، في ضحى الشمس الباهر، في ضوء المصباح الساجي، في ظلام الغرفة العابقة برائحة عرق الأجساد، في كل وقت وفي كل مكان، يخرجون من كل ركن وجوها طفلة، يدفعونك، يحاصرونك ما كرين عارفين قساة لا يرحمون، تبرق عيونهم جسارة. يسأل الرجل متحشرجًا:

-ما هذا يا ولد..؟

ويأتي الرد معاجلاً وقحًا جسورًا:

-سجرة الحب..!

لم تعد لأحاديث الرجال طلاوة ولا للضحكات أصداء مجلجلة. وكثيرًا ما يرين الصمت على المجلس وتصَّاعد على العيال مشاعر حاقدة، مشاعر ذئبية.

- معلم الصبيان

يعصف به الغضب إلى الجنون. يحس ألما ثعبانيا يتلوى في عروقه، سرطانا ينهش في خلاياه. يغمض عينيه. يصر على أسنانه. يكاد يسحق قطعه الطباشير بين إصبعيه يلتفت إلى العيال صارخاً. هؤلاء الكلاب، إذا يستدير لهم يخرسون، تتطلع إليه صفوف وجوهم النحيلة الشاحبة وصفوف عيونهم المفنجلة بالذعر والبراءة. يجتاحهم بالعصا يمزقهم تمزيقا. يولولون أذلاء غارقين في الدموع. تملؤه النشوة والارتياح وتفتر شفتاه عن بسمة مهتزة مترددة. يستدير إلى السبورة تاركاً صفوف العيال في حراسة الخوف. لكنهم يعودون هؤلاء الكلاب إلى ذلك الهمس. ما يدير لهم ظهره حتى يسمع الحركات الغريبة واللغط المكتوم.

الحقائق بالغة البساطة والجلد. وتلك الخطوط السمراء في الخرائط المعلقة على الحيطان إنما هي أنهار وجبال ووديان. وفي تلك الناحية ومن الدنيا ناس ذهبيو الشعر، عندهم قطر كهربائية مارقة وطائرات كالرعود. يشرح المعلم ويعيد الشرح، لكن العيال لا يفهمون. كلاب جرباء. يمرعون عقولهم في أكوام السباخ. تفترس دماءهم ديدان البلهارسيا التي تتسلل إليهم من أقدامهم الحافية تماما كما هو موضح في

اللوحات المعلقة. لكنهم لا يتعلمون. يلغطون خلف ظهره ويلهون بالضحكات والدسائس.

يخرج المعلم يتمشى في العصاري وإلى جانبيه مساعداه. يلقي السلام على الناس ويرهف قرون استشعاره يتحسس الكلمات وملامح الوجوه والنظرات في العيون أترى يبجله الناس أم يسخرون منه؟ بماذا يهمسون خلف ظهره؟ ماذا يحكي العيال لأهلهم عنه؟ يحكم جبته السابغة حول جسده، الجبة العظيمة التي لا يتخلى عنها أبدا.

يكره مساعديه، ذلك الطويل المنحني ذا الغليون الذي لا يخرج يديه من جيبي بنطلونه أبدًا، وذلك القصير التائه النظرات الذي لا تكف شفتاه عن الارتجاف بالتسابيح. لو كان معه مدرسان أفضل لكان استطاع أن يصنع شيئًا من هذه المدرسة التي هي حظيرة قميئة قابعة وسط أكوام السباخ.

الليل الريفي تزنجف في قيعانه الهمسات الغامضة. غرفة المعلم كئيبة الحيطان. زجاجة مصباحه مطموسة بالسناج. وقف عاريًا أمام مرآة الدولاب العتيق. ساقاه رفيعتان متقوستان وكرشه كالقربة وضلوع صدره ناتئة

وساعداه متدليان هزيلان. جسد حربائي. أسدل على نفسه جلباب نومه. مشى إلى سريره أحكم اللحاف حول نفسه. يحدق في ظلام الغرفة خائفًا.

• يوم غير مجيد

في ضحي ذلك اليوم كان المعلم القمئ المتغضن الوجه يحس بإحساسات مجيدة، حينما وقف على سلم المدرسة الوسخ المتآكل وإلى جانبيه مساعداه. في الباحة الصغيرة قدام المدرسة تحت ناظريه امتد صفان من العيال، رئين مهلهلين تقف وراءهما أكوام السباخ. على البعد وقف الآباء ينظرون. في الفضاء صمت معلق متدل مثل حبل المشنقة.

نزل المعلم الدرجات القليلة متمهلاً. عصاه الطويلة في يده. وقف بين صفي العيال. صرخ فيهم وهو يضرب الأرض بالعصا:

-فليخرج من الصف من على جبينه شجرة حب..!

الصفان يتلويان فزعًا. العيال يتزاحمون. يتدافعون بلا نظام. الأيدى تجتمع في ظهر واحد لتدفعه خارج الصف. ثم واحد وواحد وواحد. تجمع المذنبون مقعين حول قدمي المعلم

مرتجفين صفر الوجوه مشجوجي الجباه بسحجات انسلخت عنها قشرتها البنية وانتثرت عليها رقطات بيضاء محمرة.

ارتعد جسد المعلم بغضب عارم. رفع عصاه إلى أعلى وانهال بها على العيال يمزقهم تمزيقا. تشق العصا الجلابيب الرقيقة عن الأجساد الطرية وتذبحها ذبحًا. الصراخ يمزق الصمت المعلق. الوجوه الطفلة معجونة بالرعب والدموع.

تأمل المعلم كومة العيال ترتعش محمومة وتتخبط عمياء عند قدميه مثل كومة قطط وليدة. استجمع أنفاسه المبهورة تعبًا ثم بصق عليهم استدار صاعدًا درجات سلم المدرسة القليلة الوسخة.

في ذلك اليوم استدبر المعلم العيال ليكتب الدرس على السبورة ولم يسمع وراءه لغطًا. لكنه كان كل حين يساوره الشك فيلتفت إليهم فجأة وبكل سرعة يريد أن يضبط التغيير المرتسم في عيونهم المسلطة على ظهره. في كل مرة كان يرى الرعب ملء عيونهم فتهدأ شكوكه إلى حين.

- **ثمالات أحاديث**

شجرات الجميز متباعدات على شطآن الترع، أمهات قاعدات هنا منذ الأزل شجرات الصفصاف دلين غدائرهن في الماء عبر غبش جاثم على السطح الصقيل. الحقول امتداد شاسع من عيدان ناعسة. على الأوراق مخمل من أوائل الندى. الكون صفاء شفيف. كومة البيوت سوداء عند الأفق، كومة جراء ساكنة في حضن كلبة أم.

مجالس الرجال في الأماسي حزينة. الملافح أحكمت حول وجوه خددتها السنون. انعكست جمرات الموقد المحتضرة على العيون الخابية. نبشت في التراب أصابع معروقة مثل مخلب طائر نافق يا للتراب، مصنوع من آلاف القلوب النقية وآلاف القلوب الشقية، التي ملأها الحزن، والتي استخفها السرور. لا جدوى القدر لا يرد. لا غناء في السؤال أو الالحاح في الجدل.

توزعت في الحارات تحت القمر بضعة ظهور محنية، وخفقت نعال الآيبين على الثرى خفقاً مغرقاً في الوحشة. في الغرفة فتحت امرأة وحيدة عينيها على الظلام المساء، الجوى وأنين الأحشاء. ليس أكثر حرقة من دموع امرأة وحيدة.

غنت البائعة نادت على بضاعتها:

يا بن الطويلة يا بلح

يا هز نخلتنا..خسارة في التراب..

يا نايح..

الليل الريفي مائة ألف نجمة مرتجفة، مائة ألف عين عمياء، مائة ألف أذن مشرئبة. الطبيعة الساكنة حبلى بالهمسات والوسوسات. ربما هي جنادب تحفر بسيقانها المنشارية في طراوة الثرى، ربما هي فراشات غضة تثقب شرانقها أو لوزات تتشق عن نواراتها. في هذا الليل، ما أشوق كل المخلوقات للصبح، للنور تزدهي فيه أوراق النوار وأجنحة الفراش.

برلين الغربية ١٩٨١/٣/٢٤

الموت والحياة

• الحزن

الملجأ القديم، إلى هنا كنت أهرب من وقدة الظهيرة في الخارج من الرعب الكامن في العلاقة بين شمس الظهر والأشياء. علاقة صامتة مفعمة بهزيم مزلزل. كنت حينذاك طفلاً. ولقد كبرت. لكن الرعب ما زال كامناً في مح عظامي. أتراه تسلل إليّ من صمت الظهر أم من صمت الليل أم من صمت الظواهر إذا نزل الموت يمشي يبصم خطواته على حطب عرائش الدور عابرًا إلي البيت المعلوم، خفيًا عن الدنيا، مرتجف به قلب الدنيا، يلجئ رؤوس الكلاب إلى وسائد سواعدها مرغمة تعول إعوالاً ذليلاً.

الملجأ القديم، الغرفة الكبيرة في دوّار الضيوف.... لون بني قاتم يسود منضدة رخام على بساط حائل متهرئ. نقوش الجدران ووشيش المصباح الساهر ودائرة النور المتهدبة الحواش. سرادق الدخان تكاد سجوفه تلامس رؤوس الجالسين على الأرائك الكبيرة. رجال هرمو القلوب هرمو العيون هرمو الملامح. أسرة ريفية قديمة منذورة للثكل. هاهم

هنا احتشدوا يغالبون قَدر الموت. هل يحوش جهد الأيدي الخشنة المعروفة غائلة العدم.

الصمت معقود مُوقَّعٌ على خفق خطوات أكيدة آتية من غيابة الليل في الخارج إنه "سليم" الذي ينتظرونه. رجل ذهل عن الدنيا، عن الحقل والبهيمة والعيال، ونذر نفسه لطب أوجاع الخلق ساعات الليل والنهار. يسرب وئيدًا تحت ليل الحارات مأخوذا غائبًا. يحقن ويقيس الحرارة وينبه إلى مواعيد الجرعات. لا يغضب ولا يرضى، إنما تكتسي ملامح وجهه بصفرة غبراء شفيفة من الغياب. لا يسأل الناس عن خدمته أجرًا، ولا يستنكف أن تعطيه الناس عن هذه الخدمة أجرًا. تختلط النقود بعلب الدواء في جيبي الجلباب على جانبي قامته القصيرة حتى ليثقلان سيره الصموت.

الأرواح يخنقها كابوس الصمت. العيون ثابتة والقلوب معلقة بإيقاع خطو القادم المقترب. أتراه يوقظ موات أعماقي ترجيعُ سير سليم الأكيد. هل يسعني أن أمتلك بكائيتي وأن أجعل من حزني عزمًا. فجأة انفجر العم الكبير في العياط:

- آه يا إبراهيم..!

زعقت فيه:

- اسكت..!

سكت. أخرج منديله ومسح دموعه وقال:

- طيب..!

أخرج نظارته من جيب معطفه ووضعها على أنفه. أمسك بقلمه وعكف على علب الدواء وزجاجاته يسجل الجرعات والمواعيد. أي خراب يشيع في وجهه المجوف وفمه الغائر وملامحه القاتمة السمرة. أي خراب يحيط بنا ويحصرنا، يجتثنا واحدًا إثر واحد.

صحت عيناي على وجه سليم واقفا في فراغ باب الغرفة متجهة إليه أنظار الرجال. إنه موعد الحقنة. قام عمي الأصغر وقمت خرجنا نصحب سليمًا من الغرفة إلى ردهة الدوّار إلى الشرفة، تحدرنا على الدرجات نازلين إلى الشارع قاصدين بيت المريض عمي إبراهيم.

هذا الليل يعصب على عيني بالعماء، لكنني أعرف طريقي. أحمل قلبي المضئ على أرنبة أنفي مثل سمكة الأعماق السحيقة. هذا الليل يحضنني، يكتم عيني في طراوة صدره، لكنني أفتح على عتمته الرمادية شعيراتي الدموية كي تمتص منها لين الجسارة. تمتص صرخات الذئاب الغبر ووقع خطى لصوص المناسر القدامى وكل الأصوات الجاسرة الغريبة الذئبة في هذه الأبدية الليلية وتودعها قلبي. حتى أكون قادرًا على أن أكسر ترنيق التقى على وجوه الطهورين، وعليّ أن أبول على الأسى المقدور في القصص القديمة. بذلك تتلبسني روح الساحر الزنيم فيسعفني أن أبعث الشفاء في جسد العمل المسجى.

نحن أسرة ريفية قديمة ملحدة ملعونة. حتى الذين يقيمون الصلاة منا ويقتنون، إنما هم ملاحدة إلى النخاع وملعونون إلى النخاع وممزقون في داخلهم. نحن مرضى حائلو الجوه ولون العيون. نحن مرضى حائلو الوجوه ولون العيون. نحن نحمل في عروقنا جرثومة غريبة تحكم على أجسادنا بالهزال وتختم على أرواحنا بالكآبة وتعطينا خلقا

ذابلاً مشوها. لكن هذا العمل لا ينبغي أن يموت لا ينبغي أن يموت.

فاجأ عيني ضوء غرفة المريض كأنه ضحكة ساخرة. ضغط على روحي جمع العمات الجالسات على الحصير في الأرض عاصبات رؤوسهن بالطرح السوداء، يدرن بينهن حديثا غامضا وهن مزمومات الأفواه مثل بومات على فرع. غالبت وجلة قلبي وعقدت عزمي.

قفزنا ثلاثتنا على السرير أحطنا بالجسد المسجى. احتضنت رأسه بين كفي.

مازال وجهه قاسيا غضوبا. شخيره لاهث متتابع. تحسست خشونة لحيته النابتة ودهنية بشرته المتقرحة وشفتيه الوارمتين المنفرجتين عن أسنانه المتسخة. انحنيت عليه قبلت فمه. انهمر نهر دموعي لكنني بقيت مسيطرًا على نفسي.

عصر عمي الأصغر ساعد أخيه الغائب في غشية المرض حتى ينفر العرق الوريد. صحت في وجه سليم انتباهة مفاجئة حادة. دفع السائل الدامي في العرق. ازداد الوجه الموسد قساوة واغبرارًا. عرى من كل شبه بشري.

مائل قطعة جافية من حجرة غشيم. صدرت عن جمع العمات ولولة. لم أعرف من منهن التي تتكلم:

– إنه ميت ميت... تعذيب جسم الميت بإبر الحقن حرام..!

زعقت فيهن من مجلسي على حافة السرير.

–هو بخير.. أنا قلت.. حلوا عصائب الحداد السود.. يا طيور الشر...!

شيء ما في أرواحنا مريض. موصول بعزف الانتظار في عيادات الأطباء. بتلك القتامة العطنة بصمت المنتظرين الذليل وتوجعات المرض. لا ننى نزوح هناك مدفوعين بالموت الكامن في أعماقنا متكورًا كالحسرة أو القنوط، نظاف الثياب على وجوهنا أقنعة أسى فطري مقدور. نسلم أجسادنا لأنامل الحكماء الصفراء الشفيفة، وتتصتهم المتوجس وتأملات عيونهم الزجاجية نسلم أجسادنا لهم في ساعات التذاذ حزين وخضوع خائف لناموس العرافة ونحن نألف العقاقير. يستولي علينا سحر ألوان السوائل في الزجاجات. تستلبنا رهافة استدارة الأقراص ودقة تكوينها. نسيغ رداءة طعوم الأدوية ونصير على سوء روائحها في رغبة ملحة

لتعذيب ذواتنا بحثاً عن السر الكامن في هذه الجواهر الغريبة.

ألهذا حملته إلى طنطا وهو غائب عن الوعي مغمض العينين؟ أكنت فريسة مسلوبة لتلك القسوة الجهمة في وجوه الممرضين ومساعدي معامل التحليل؟ لذلك الإرهاق الشاحب المترفع في سحن الأطباء؟ أهو قدر أن نحملم رضانا إلى هذه البيوت القديمة العطنة في المدينة الوسخة قبل أن يموتوا؟ هل هذه الرحلة إلى طنطا طقس من طقوس الموت؟ ولولت العمات من خلفي وأنا أحمله على كتفي مسافراً به يتبعني عمي الأصغر:

- تعتل رمته على كتفك وتدور به على الأبواب في شوارع المدينة المشئومة؟ إنه ميت فما يجدي الدواء؟

أي طيور ليلية خفية الأسماء والهياكل، مستورة بسجوف الظلام، مدعوة لحتوفها، ماضية إليها، تنوح وتولول وتلقي على قلبي بنذر الشؤم. نعود ثلاثتنا بعد الحقنة إلى الدوّار. أمشي بين عمي الأصغر وسليم. قبضت على ساعد هذا لأصل إيقاع داخلي المضطرب بإيقاع خطوه الرصين. حتى لا تخترمني الأصوات التي تهوى في جب الليل تارة

وراءها ذيولاً مستطيلة قبل أن تغيب في العمق السحيق. أثبت عيني على الظلمة أحاول أن أتحسس الكتلة المعتمة المقتربة.

ذلك دوّارنا. أصعد درجات السلم إلى الشرفة أحس إحساسا رائعًا بالرهبة والأمان. هذا معبدنا وقلعتنا. هذا ما بناه لنا الجد الكبير. لماذا لم يشتر لنا حقولا شاسعة على رؤوسها عشبًا وحظائر؟ أكان يعرف احتياج حفدته لهذه الصدفة الهائلة ليدّرعُوا بها أن يهرق ماؤهم ويضيعوا؟ أكان هذا الجد نبيًا يعرف الآتي؟ أم أن جرثومة عطبنا الخبيثة نشبت أولاً في جرمه الهائل ثم انحدرت منه بالإرث إلينا؟

ولقد قصر الجد نسبنا في ورقة هائلة مطوية مسطور فيها أسماء الموتى ومحفوظة في علبة من صفيح صدئ في ركن من أركان الدوار. تشابهت الأسماء بالأسماء. اشتبه الموت بالحياة في قدر الثكل، في نبوءة نبي قديم. كان يحبس نفسه السنين الطوال في غرفة معتمة داخلية يصوم النهار ويقوم الليل. كان كثير التنصت على داخله. أدرك ضيعتنا بين معنى الموت ومعنى الحياة.

رغم ظلام الردهة الحالك أرى. يحضرني إحساسي القديم بالأمان إذْ كنت أهرب طفلاً من وقدة الشمس في الخارج إلى عتامة هذه الردهة ونورها الرطيب الملوّن بألوان زجاج الطيقان وشراعات الأبواب.

ألقيت بنفسي على الأريكة في الغرفة الكبيرة سار عمي الأصغر وسليم الهويني كلٌّ إلى مجلسه. اتكأت على طراوة الوسائد. أسلمت روحي للنور المدخن والوشيش. هذه الغرفة هي ملجئي القديم. هذه الأشياء التي حولي وهذي الناس هي جسوم شواهد على كل ساعات الخوف والقهر. قائمة حولي أبدًا تتنفس التراب تحت قشرة غالبة من اللون الحائل.

أتتبع ذلك الإطار من الورود السائر أعلى الحيطان. أتراني أرى نقوش الجدران هذه أم أتذكرها. هل ينفذ بصري خلال سجف الدخان إلى النقوش أم تنفذ إليها بصيرتي خلال أيام زمن طويل. أحزن الآن كما حزنت طفلاً من تحول الألوان وانمحاء الرسوم وضياع البهاء الذي كان يومًا. يفجعني الآن كما فجعني طفلاً سقوط البياض عن فراغات سوداء شائهة.

أتلهى بتصفح الوجوه الصغيرة في الصور القديمة المعلقة على الحيطان. مستورة هي عن عيني بالدخان، لكنني أعرف سيماء كل وجه وانكسار كل نظرة. أميز عمي الكبير بين صبيان مدرسته نحيلاً رقيقًا واسع العينين تكسف بهاء صباه سحبٌ من خجل ريفي. هاهو ذا الآن جالس على الأريكة قربي هائل حجم القدمين يرتدي عديدًا من الجلابيب والسراويل ومعطفًا سابقًا قديمًا ويعمم رأسه بشتى أنواعه الخرق. منحن على الموقد الموضوع على منضدة الرخام يصنع القهوة بانصراف شديد وأناة تامة ويناولني فنجالاً أستطعم مرارته وسكره. أحب ذلك الأب الكبير. يترقرق حبه في قلبي مثل دمعة.

أتراه يتفكر الآن في مثل هذه الحال، حيث يكون هو المريض المُسجّى على فراشة. في غرفته، وهنا يجتمع الرجال في ضوء المصباح الساهر الطنّان تحت سرادق الدخان وأمامهم كومة من علب الدواء وزجاجاته، وفي قلوبهم الخوف والحسرة وعلى وجوههم الحداد؟ لهفي عليك يا عمي. أتأمل وجهه.

وأتصفح وجوه الرجال الآخرين. ينظرون إليّ بعيون غاسقة. يثقل على عواتقهم يومان طويلان دون لحظة راحة أو إغفاءة نوم. يتململون في مجالسهم. يطلقون أجسادهم من إسار الجلوس. يتكئون أو يتمددون. تنتظم الأنفاس. يتراكم الرماد مطبقًا على مقل الجمرات. يخبو في الغرفة نبض الحضور. تضيق دائرة الضوء على المصباح الساهر ويضمحل وشيشه. تزحف العتمة من الأركان. تسود برودة الغياب.

فتحت عيني على ما حولي. خرجت من سكرة النوم الذي غرقت لحظة في جبه السحيق. رأيت الأسطى سليم واقفا وسط الغرفة تتهدب على كتفيه شراسف الدخان المضوأة بالضوء الخابي من المصباح المحتضر. قطبًا أو نبيًا مرسومًا بالكلمات الحكيمة على صفحة صفراء من صفحات كتب السيرة القديمة، يعظ ويحذر من الخطيئة. لقد صحا على موعد الحقنة التالي وها هو ينظر إليّ بعينين ناطقتين بالعتاب. أحسست بمذلة الذنب حتى كدت أبكي. عدّل هو ثوبه واتجه إلى الباب دون بنت شفة. همست خلقه صارعًا.

- سأصحبك إلى هناك يا أسطى سليم..!

أعرفه فهو يسمع دون أن يجيب، وإن أجاب فهو خفيض الصوت مبهم العبارة. تبعته يمشي قصيرًا وئيد الخطوة. جياه على جانبي جلبابه منتفخان بصنوف الأدوية والمحاقن والضمادات. أحكمت شملتي مخبئًا عظامي المرتعدة في كن الدثار. أبقيت عيني ثابتتين على القامة القصيرة المندفعة في خطوة رصينة أكيدة وأنا مهتاج متهدج الأنفاس. الموكب غريب الخفق تطل عليه منحنية واجهات الدور المصلوبة في برودة هذا الليل.

انتهينا من الحقنة وقفلنا آيبين. إيقاع خطونا كدقات ساعة في ردهة مقفرة. نشير مثل ثاكلين في سكة بين شواهد القبور، نملك الوحدة والحزن والبسالة. المواجع مدفونة في جحور مضوأة دفيئة مخبوءة تحت ركام الصمت والبرد والعتامة التي يراكمها هذا الليل. سليم يعرف هذه المواجع. ينفطر لها قلبه كأنه كلبة والدة تعوي في داخلها وأنا أسمع هذا العواء مسلوبًا لوقع خطاه إذ يتركني قدام السلم مبتعدًا حتى غاب عني مائلاً مع انحناءة الحارة. حينئذ تركت الدوّار خلفي وأسلمت نفسي للعتامة.

رجل عمي إبراهيم مريضة يعرق النسا، فهو لا يسير هكذا ويل هكذا. أحجل في الليل وحدي خطواته العرجاء المشئومة وأصيح وأضحك ضحكًا يجلجل في قلبي مكتومًا دون صوت. كان عمي إبراهيم يسير هكذا. كان الربع من كيانه ذابلاً الأرباع الثلاثة ناشطة نشاطًا نشاطا معوجًا شائها هكذا. وأضحك ضحكًا يجلجل في قلبي دون صوت. أزعق زعيقًا مجلجلاً صامتًا واضعًا على وجهي قناع وجهه المريض المغبر المغمض المفرج الشفتين المتسخ الأسنان. تملأ قلبي غضبة أليمة وقهر لا يوصف متمثلة لي قومته في وجه واعظ المركز.

ذلك كان رجلاً بشعًا قام يوما بين الناس يعظهم إلا يناموا مع نسائهم في نهار رمضان والناس يسمعون صامتين أذلاء. لكن إبراهيمكسر الصمت هاتفًا:

-فلان فعل..!

صرخ الواعد.

-كفارة الفعل صيام ستين يومًا متتابعات..!

قال إبراهيم صراخ الواعظ بالصراخ.

- من يعمل بالفأس تحت الشمس من أجل قوت عياله لا يستطيع هذا الصوم!

قال الواعظ مصرًا:

-فليطعم ستين مسكينًا..!

قال إبراهيم منافحًا:

-إنه فقير..!

زفر الواعظ يا ئسًا:

-في جهنم وبئس المصير..!

قال إبراهيم معانداص

- ألأنه خالف حكمًا لا يعرفه..!

قال الواعظ مقررًا:

-تلك شريعة الله!

خالف إبراهيم:

-تلك شريعة حالك ظالم لايشبه الله في شيء.!

صاح الواعظ بإبراهيم:

-يا كافر..!

شتمه إبراهيم:

– يامنافق..تدفع لك الحكومة لتنشر الخوف واليأس بين الناس..!

والناس يسمعون الحوار الملتهب ذاهلين.

دلفت حالجلاً إلي الزقاق الحالك. من هذه السكة كان مشواره اليومي إلى المقهى يجر ذيل ثوب يكنس الأرض وراءه لا يجمعه حذر النجاسة. سرت أحجل خطواته وضعت أقدامي في مواطئ أقدامه. المقهى كائنة في نهاية الزقاق. في داخلي هزيم الأصوات. ألهث وجسدي ساخن عرقان. استندت إلى الجدار مغمضًا عيني. انهارت ساقاي فتهاويت جالسًا جنب الحائط وما زلت أحس على وجهي قناع وجهه المتقرح المحتضر. من إغماضي أرى الشقوق في باب المقهى واشية بضوء المصباح الساهر في الداخل. يكبلني عن أي حركة عجز كابوسي جاثم على جسمي وعقلي وروحي. هكذا مات كلبنا الأسود منذ سنين. أسند ظهره إلى زاوية الزريبة وأغمض عينيه وظل متصلبًا يلهث حتى مات. راقبت ذلك كله مرعوبًا وأنا طفل صغير. لو كان قام ما كان مات أبدًا. لو كان هزم الموت مرة واحدة ما كان مات أبدًا. إن عمي إبراهيم يجب أن يقوم. إنه يجب أن يقوم

أفلت من قبضة الكابوس لاهثا مبللاً بالعرق، واصلت سيري في الزقاق. ألسنة من برد الليل فتشت ثيابي ولدغت جسدي الساخن كالأفاعي. أسير في الزقاق تاركًا المقهى خلفي. إلى هذا المقهى كان يأتي كل مساء راقصا أمسياتنا الكئيبة المضوأة بالفانوس في ردهة الدوّار. كان يأتي إلى هنا يحشر نفسه وسط زمرة من الأوباش في وقدة الضوء المحبوس في فراغ الغرفة القليل. صراخ المذياع وطنين موقد الكيروسين ودخان نار القوالح ورائحة دخان السجائر والجوزات. كان هو وسط صخب المقهى أعلى الناس صوتًا وأعنفهم خبطًا بورق اللعب على الطبلية. أترى يسع زخم الحياة في جحر المقهى أن يطغى على شحوب المرض في غرفة رقاده، وأن يرفد الفيض العارم هنا عروقه بالعافية والمروة؟

أنا قبل يومين حملته على كتفي هكذا. صعدت به السلم المتآكل الدرجات في المنزل القديم في طنطا هكذا. هناك في معمل التحليل عروا جسده. غرسوا في ساعده وظهره سنون الإبر. استقطروا الدم والنخاع تتلوث منه أصابعهم. أمسكوا

الأنابيب بالمساكات المعدنية. طبخوا العينات. كتبوا الملاحظات. التفتوا إلينا بوجوه شاحبة متورمة وعيون مائية خلف زجاج النظارات. وأنا وعمي الأصغر تقطر قلبينا القروح في الجسد المسجي.

أتينا بالحقن والأقراص وزجاجات الدواء. رجعنا به هكذا. تأرجحت بنا العربة القديمة الهائلة الحجم على أرض شارع دائر الناحية والسائق النحيل يهزه الارتجاج على كرسيه. الخلفي على حجر عمي الأصغر.

سأحفز في ذاتي كل حرص وحذر. سأحشد في عقلي كل يقظة وانتباه. سأحفظ المواعيد ومقادير الجرعات. سوف أتقوس على جسده المسجى متوئر العروق راكزًا بصري، سأقطر في عروقه من سر هذه الجواهر الغريبة حتى يصحو. آه. تنهمر دموعي. أبكي قهرًا أبيدًا كالدهر.

بقيت وحدي ومن حولي ليل تعوي في جوانبه الكلاب. أصرخ في بئر ذاتي صراخًا مكتومًا بكلماته الأليمة.

– من يمت إنما يذبح ذبحًا. من يمت إنما يفنى ويندثر ويصير ترابًا. لا تبحثوا عن عزاء كاذب في الحكايات القديمة!

زحمت صدري غضبته المروعة. حدقت في عتامة الليل الفضية بعينيه المتقرحتين العاريتين من الأهداب. كأنما أرى في العتامة حولي أهل القرية جميعا ذاهبين إلى المسجد لصلاة الجمعة. كأنني أراهم يتركونه وحده خلفهم في هذا الخواء جالسا على كومة التراب أمام باب داره، عنيدا رافضا أن يلحق بهم، وحيدًا وحدة مخيفة وستائر الليل الشفيفة الغبشة تنزل علي تكاد تخفي عني رسوم شخصه وملامح وجهه.

أمشي في الليل متخذا سمت الكلام وإيماءاته وأنا صموت. أقول في داخلي أن عمي إبراهيم لا ينبغي أن يموت. إنه اختار حياته هذه فقط وعاشها بكل مكنات عقله وقلبه وجسده وبصق على كل ما عداها بصق على كل ما ينقص من توترها أو يدمث خشونتها بالخوف والمهانة. لهذا فهو لا ينبغي أن يموت. عن موته لن يكون تغيرًا أو انتقالا بل سيكون نفوقًا كنفوق البهيمة. هذا النسر المتوحد ذو

القروح، لو كبس الصمت على مجلسه فوق كومة التراب أمام باب داره، فإن نقصًا فادحًا سوف يعتور الأشياء.

خطبت في الليل. زعقت بكلمات مجلجلة صموت. عبات روحي بحقده المرير شتمت الزيف والتلفيق. قلت كل كلماته المشحونة بكهرباء غريبة. ضحكت ضحكاته الصاخبة المريرة التي جعلت الناس يبيضون خزيا لكنهم يأتون إلى مجلسه يجلسون حوله مطرقين مسلمين رخاوة أرواحهم لنصال سخريته.

كرهوه إلى النخاع لكن أحدًا لم يطله بكلمة سوء. فهو لا يكذب ولا يسرق لا لأنه يخاف الخطيئة، بل لأنه يحتقر آلتي السرقة والكذب. وهو لا يزني لا لأنه غير شغوف بالنساء بل لأنه يأوي إلي امرأته وهي امرأة وسيمة عذبة تصدقه المودة والرعاية، وهو لا يصطنع لنفسه حلمًا ولا وقارًا ولا زعامة ولا انصاتا للثرثرة والجدل ولا حكومة في الخلافات بين الناس. إنه وحيد وحدة أليمة، لا يحب أحدًا ولا يسأل أحدًا محبته. باحة داره نظيفة، لا محراث ولا فأس ولا حبل، لا بهيمة ولا مخازن للمعاش، يشتري قوت يومه بالقرش كأنه طالب علم يعيش غريبًا في غرفة مأجورة.

لكنه لن يموت، فإن في روحه شيئا شرسا شريرا موصولا بجسارة القاتلين القدامى وشيوخ مناسر اللصوص. تعيش بقاياهم إلى الآن في القرى البعيدة رجالا هرمين يرتحل إليهم، يجلي إليهم يفرح بهم كطفل، يرتجف على حكايات أخبارهم ومساربهم تحت ظلمة الليالي السالفة القديمة.

لن يموت لأن في روحه شيئًا خبيثا ملتويا شأنه يستعصي على الاستئناس أو المصالحة، يجعله يفترض سوء النية في كل قصد، والغش في كل فعل، والنفاق في كل ورع، والرياء في كل محاسنه، ويجعله يتربص بالنازلين على القرية من وُعَّاظ أو بائعين أو سحارين يطبون للأمراض والعلل، أو متسولين أو مجاذيب أو أفندية من رجال الحكومة وعمالها يزرون معاطفهم على بخيلة نفوسهم. يثبت لهم عارفا رموز كل منهم. يسألهم ويجادلهم ويرد عليهم بحججهم يفتش جيوبهم ونواياهم، يعريهم، يسوطهم يطردهم خارج القرية ذلك الحارس الريفي القديم.

لن يموت لأن فيه سرًا يصله بالحياة حتى يصير جزءًا من نسقها الشامل ترفده بزخمها وعنفوانها. سر يجعله عارفًا بآفات الزراع وأمراض البهائم. ما يرى عودًا يذوي أو حيوانًا يتألم إلا وتتغلب تصاريف الوجع على ملامح وجهه الصخرية. ينحي الآفة عن العيدان ويبطر البهائم ما أخطأ مرة تشخيصًا ولا خابت مرة له وصفة لن يموت..

جربت ناحية داره أراها على البعد. جربت لاهثًا وبرد الليل يسفع وجهي. أتصورني أراه جالسًا على كومة التراب أمام الباب. أتصوره يكلمني. أتخيل شفتيه الوارمتين تتحركان حركة أليمة:

-أنا أحترق يا بن أخي.. نار الوجع تشب في جسمي.. نار..!

أجري ناحية داره وصوته المتألم يسوطني. شبحة قيالة عيني جالسًا على كومة التراب. أمام باب دار يتفحص قروح ساعديه ورجليه. أجرى ناحيته لاهثًا.

أجاوب نداءه الصامت بالصراخ الهلع المكتوم.

دفعت باب غرفته داخلاً مقطوع النفس من الجري أقبلت عليه ممدًا في سريره ولولت العمات وراء ظهري:

-منقاره اصفرٌ.. وعيناه جمدتا بالحق..!

تأملت الوجه المسجي. الجفنان انفرجا عن مقلتين عكرتين ثابتتين. على أرنب الأنف بقعة صفراء.. آه.. تلك غاية الألم.

قبلت جبينه. الموت حالة من حالات النفس والجسد، حالة أخرى. الموت قنوط إلى القشعريرة. استدرت في مجلسي على السرير أطل على جمع العمات الجالسات على الحصير في الأرض. ترينني وهن ناكسات أبصارهن في الحجور، متعاليات كسحب سوداء، ممتلئات بالحكمة الأبيدة.

منذ متى كتزن الماء لغسل الجثمان والدقيق لخبز المعزى هؤلاء العرافات بالمواعيد ومقادير الأفعال. متى يشق صراخهن الفضاء واصلاً إلى كل قلب ناعيا إليه الميت معلنا عن طقوس العدم المرعبة.

بدأ صمتهن المتقبب الأسود القاعد بسري إلى روحي ويجزم بالفزع على قلبي. يحاصرنني بلعنة صامتة كأنني ملحد نجس تسلل إلى قدس أقداس الموت.

المصباح على رف الطين في الحائط يرمقني بعين طفل مشدوه. انزلقت نازلاً على السرير حذرًا حتى مست قدماي الحصير. بقيت مقلة المصباح مرسومة على عيني وأنا أضرب في ظلمة الخارج.

مددت بصري عبر الليل وجدت عمي الأصغر واقفًا في شرفة الدوار غائرا كأنما يبعد عني بمسافات شاسعة. إنه يناديني وأنا أسمع صوته متوترًا مفعمًا برنة البكاء. نفس الصوت الذي سمعته متهدجًا نابعًا من حروف كلمات البرقية التي أرسلها إلي:

" عمك إبراهيم مريض وحالته خطرة واللقاء نصيب"

هكذا يناديني دائما. هكذا يتهدج صوته دائما يرن في سمعي وقلبي نابعًا من حروف الكلمات في رقاع البرقيات. أخرج مسافرًا إليه لا أحمل حقيبة متاع، إنما الخبر في جيب معطفي. رجل آخر يهوى، واحد آخر من تلك الأسرة المنذورة للعدم.

سرت ناحية الدوّار مخلفاً دار عمي إبـــراهيم ورائـــي تتحرك شفتاي بهمهمات مبهمة. كم من الأيام مر. كـــم مـــن الأيام بقي. ما جدوى السؤال. سنظل هنا نحيب على أســئلة الحزن بعيون غاسقة.

- **الرؤيا**

ننزل درجات السلم من الشرفة إلى الباحة أمام الـــدوّار. العم الكبير وعن يمينه وشماله عمي الأصغر. وأنا. موكـــب بال مهزوم لكنه ثابت الخطى. الوجوه نابتـــه اللحـــي ذابلـــه العيون شاحبة، لكنها وسيمة بندوب الحزن منوَّرة بالمعرفـــة الأليمة قريرة باليأس إلى انعدام الرجاء.

الصبح يولد في قطرات النـــدى علـــى أوراق كـــافورة الباحة، وعلى ذوائب الحطب المدلاة من عـــرائش الـــدور، يتشعشع على الأرض الرطبة. الصبح معتم له صوت يغـــزو الروح، مبلول كأنه امرأة مستحمة يقطر الماء من غـــدائرها. إيقاع مناحة النسوان يخالط الضوء الصـــبحي، يمشـــي فـــي عروق الجسد إلى القلب.

مقدور أن نساق هذا الصبح إلى هذه الهزيمة الصبحية، إلى هذا الخراب الذي انكشفت عنه ستائر الليل، إلى هذه الرغبة السحيقة التي تعمر المسافة القليلة بين مندبة النساء في دار الميت وبين سكون الرجال في الباحة أمام شرفة الدوّار.غربة تقصينا عن الدنيا، تنفينا عن ذواتنا مرعوبين إلى النخاع.

لكننا نجيب بالكبرياء سؤال الموت. كبرياؤنا المخزون في أرواحنا كالماء العطن في الدنان القديمة. كآبتنا المعشعشة في أجسادنا المتوحدة التي لا تتآلف. تنبو بها المضاجع في ليالي السهاد الطويلة. تشيح الوجوه أنفه وعجزا. تتلون العيون بالقتامة شاردة مهاجرة إلى الرؤى الغريبة التي تفلت من الخيال ولا يدركها التحقق، هاربة من البلولة المتخثرة في أجساد النساء، مرعوبة من رقتهن المتشققة الشرقة طهورون إلى الانقطاع نحن. نزمق مندبة النساء بعيون بيضاء لا ترى.

نتمنى لو أنا حملنا جثمانه بيننا، نداريه بفضول جلابيبنا، نلحده في ردهة دوارنا هاربين بموتنا وميتنا إلى عمق كتماننا، لا يرانا احد ولا يشفق على فجيعتنا ولا يعرف

نقصتنا. لكنه هاهنا ستقام المعزى. سوف تكنس هذه الباحة وترش بالماء وتجلب الأرائك من الدور وترص صفوفاً. سوف تنصب أشباحنا كنواطير رثة، نسير بين صفوف المعزين على وجوهنا أقنعة الأسى الفطري المقدور. نومئ الرؤوس بتحيات عميقة، تتحرك الشفاة بغمغمات مبهمة، كأنما نعتذر للناس عن مسائنا الكئيب.

كان يهرب إلي المقهى من أمسياتنا هذه في ردهة الدوار. كان يصرخ بالحقد الذي نكظمه في بطوننا صامتين. كان يضحك مرارتنا التي نطوي عليها قلوبنا خلف شفاه مزمومة. كان يحجل هنا خطواته الشائهة ونحن ننظر إليه. كان يرقص رقصة السخط والعذاب ونحن قاعدون مكسورون عاجزون، تعرف أنه مربوط بالعطب إلينا ننتظر عودته لنا وميتا نملكه، نحمله إلى اللحد على عواتقنا ونلحده في عمق صمتنا، نبكيه بعيون لا تدمع وقلوب لا تخفق، نأسى عليه بوجوه مهدمة كواجهات الدور الهرمة.

لكنه مات موته الفادح الغريب. نصبت مناحة النسوان. ودفعنا إلى صبح منشور على فروع الكافورة، ننزل إليه من سلم الشرفة إلى الباحة. أطلّ علينا العم الكبير. على وجهه

كبرياء جليل. ما أعظم الكبرياء على وجوه الموتى، إنه لا سبيل إلى انتقاصه أو هزيمته: مشينا أنا وعمي الأصغر إلى العم الكبير، فلما صرنا قدامه رفعنا إليه وجوهنا صامتين.

اقتيدت الحمارة. ما اشد انكسار وجهها، كأنما خلقت مطية لجلب تصاريح دفن الموتى. أخذها الرجل بعيدا. ركبها. حرك ساقية حركة رتيبة. بدأت الدابة تندفع على السكة بطيئة ثقيلة... وإذا ما جئ بتصريح الدفن واشترى الكفن، فسوف يأخذ رجلان فأسيهما ويذهبان يحفران اللحد.

- هذا هو حال الدنيا..!

من قلب الصبح يقبل علينا عم بكر يمشي، خطوته الأكيدة المتساوقة. إيقاع سيره يرن في قلبي جليلاً مسيطراً حتى أذهل عن مناحة النسوان. يشرع الرجل جبينه إلى الأمام. يداه في جنبه لا تتخبطان بحثا، إنما ترتجفان ارتجافه متوترة:

-سعيكم مشكور يا عم بكر..!

يرفع إليّ وجهه الأعمى المترب الجبين من أثر صلاة الصبح. تنقبض ملامحه عذابا. تتقلص شفتاه عن ثنيتين تراكم

على جذورهما الجير. يصافحني بيده الريفية الغليظة وهو يقول:

- غفر الله ذنبك..!

وأسمعه كما سمعته عمري يترسل صوته من تحت ستائر الليل في الهزيع الأخير مرتلا دعاء الفجر. دعاء نابع من قلب الليل. الليل نسيج من قلوب صغيرة متلألئة تصيخ. وأنا تحت ظلام الإغفاء وحبس الغرفة يحولني الصوت إلى قطرة في محيط لانهائي. يحولني إلى شيء من الأشياء الليلية حصاة أو ورقة شجرة مثقلة بالندى منصتة.

عم بكر يعرف مواقيت الأذان دون أن يستشير ساعة. قلبه موصول بدورة الأفلاك وآناء الليل والنهار. ينصت مخليًا بين قلبه وبين المواقيت. تنشط به الرعبة إذا استشفت روحه تلك اللحظة المليئة بالترقب والتوجس، الخافقة بالشوق للترتيل في قلب النهار أو آخر الليل. عندئذ يمشي في الحارة خطوته الواثقة المتهاوية حتى يدرك المسجد فيصعد لكي يؤذن.

أهي مناحة النسوان التي روعت الصيح، أم هي لحظة في هذا الصيح فاجعة أدركها قلب عم بكر فحملته من داره في قاع الحارة البعيدة إلى مكاننا هذا أمام شرفة الدوار. لا أدري، ولا أدري أجاء عم بكر مؤذن الجامع إلينا ليكون أول من يقوم بواجب العزاء في رجل لم تعلم قدمه علامة على حصر الصلاة، رجل لم يرع حرمة الأوقات ولا قداسة المواسم، ولم يتطامن لصوت المصلين يرن في العتامة الرطبة خلف الإمام.

يقف عم بكر معنا، لا يتململ ولا يلفت ولا يخبط في الهواء بيديه محاولاً أن يتقن أين هو، إنما ينتصب وسط هذا، مخليا بينه وبين قلبه، وعيناه المطموستان بالعمي مرهفتان شوقا أخرس أليما. يشخب الندى من الشجرة ويعلو الصبح، يبيض تتسع مقلتاه دهشة وتوجسا وإنصاتا. صبح عري من الحياة الصبحية، عار من فرحة الحيوات الخارجة إلى لذعة البرد من دفء محابس الليل، صبح حزين كأنه يصيخ لحزننا يؤذن به عم بكر أذانا صامتا ويرتله ترتيلاً:

- هذا هو حال الدنيا..!

- سعيكم مشكور..!

و الناس يأتون يسربون يصمون خطواتهم على الأرض الندية يميلون على مكان الاجتماع ذاهلين عن عمل اليوم ينتظرهم في الحقل، وعن البهائم تتململ في مقاودها في الزرائب.

- هذا هو حال الدنيا..!
- سعيكم مشكور..!

الصبيان على البعد يرمقون الجمع. ودوا لو أنهم كانوا رجالا وكانوا معنا الآن واقفين يقدمون واجب العزاء:

- هذا هو حال الدنيا..!
- سعيكم مشكور..!

و أصافح الأيدي الريفية الخشنة، أطالع الوجوه العارية من بهاء أقنعة الاحتفال. هؤلاء رجال ألفوا أن يلزموا الحقل والبهيمة حتى أصبحوا أشبه شيء بفروع غليظة جافة لم تشذبها ممارسة طقوس الاجتماع والمجاملة. هؤلاء الرجال كانوا فراشا سخرية إبراهيم. كان يمزق جلودهم بكلمات كالسياط. كان يشتم غباءهم وجمودهم ووثنيتهم وإحساسهم كالعيد في عالم شغلهم لا يرون غيره. كان يضحك من

بلاهتهم وسقوطهم في أحابيل النازلين على القرية من متسولين أو بائعين أو الأدعياء من مشعوذين أو أفندية أو رجال شرطة. كانت كلماته تطاردهم كأنها كلاب مسعورة تأخذ بتلابيبهم لا ترعى فيهم حرمة:

- هذا هو حال الدنيا..!

- سعيكم مشكور..!

وهاهم يجيئون كذلك، أصحاب الوقار والتؤدة، رؤوس العائلات. أعرف الوجوه والقلوب. هؤلاء الأتقياء الذين يمشون وئيدي الخطي، لا يستعجلون ولا يتلكأون. يقولون الكلمات الحكيمة. يحرسون سكينة أنفسهم. يرهفون إنصاتا متشوقا يستصفي من اضطراب هذه الحياة صغارها نغمة خاصة رتيبة مضطردة متساوقة جليلة لا يزعجها تضارب مسارات الحيوات ولا اختلاط الرغبات والشهوات. يزامق هؤلاء مناحة النسوان ويغضون البصر عن الحرام ويغمغمون:

- هذا هو حال الدنيا..!

لم يكن إبراهيم يطيق هذه الأنماط الصقيلة الباردة الخالية من نبض الحياة الشرس المضطرب المتداخل. كان لسانه الفاتك مثل نصل مسموم، وكلماته المشحونة بكهرباء خاصة تجعل الرجل منهم يبيض خزيا. يمشي متعثرا وهو يعلم أن عيني إبراهيم المحمرتي الأجفان العاريتين من الأهداب مغروستين في ظهره، ويسمع الضحكات تجلجل وراءه تسخر من سمت وقاره وحكمته. مازال في الهزيم المكتوم لهذا الصبح رنين صوت إبراهيم الغضوب. ما زالت مرارة حقده الهائل ترفق على كل الأشياء الصبحية:

– سعيكم مشكور..!

أصافح الأيدي التي صقلها إدمان المصافحة واستطعام دفء الاحتضان. أجد في الوجوه مهابة حزن عميق. ليست هذه أبدًا أقنعة يقضي بها واجب العزاء بل هي وجوه روعها اختلال خارق في نظام مضطرد مألوف.

والناس يأتون، تكشف الشمس الصفراء المبلوعة عن مسارب سعيهم إلينا، رجالا هرمين وشبانًا أحداثا، ناسا صاحبوه وناسا جانبوا مجلسه. جاء صعاليك المقهى النحيلو

المعاصم، الذين يعملون يومهم وينفقون قروشهم على الورق. جاء الرجال الآخرون الذين يملكون السواقي على رؤوس حقولهم ويملكون مخازن الحبوب تثقل حيطان دورهم. جاء حفاظ القرآن دون أن يأخذوا للمناسبة أهبة من جلباب أو عمامة. جاءوا فرادى ذاهلين لا ينظمهم موكب، ولا يوحد خطوهم وقار.

الناس جميعًا واحتشاد صامت ثقيل الوطء. يقفون تحت الشجرة في الباحة قدام سلم شرفة الدوار. يجلسون على الأرض بجوار الحيطان. الصمت رابض جهم. الوجوه يوحدهم ملمح دهشة مرتاعة وعزم مجتمع ساخط. عم بكر قائم منتصب لا يريم. عكر الجبين مشرع الوجه، عيناه مطموستان فيهما كآبة التماثيل وصلادتها. شفتاه تلتويان دون صوت، كأنما هو يؤذن بالغضب في هذا الضحى أذانا أخرس تدركه القلوب وتنبض به تجاوبه.

– هذا هو حال الدنيا..!

– سعيكم مشكور..!

يصافح الناس. ينظرون ليس من أجلنا جاءوا ليس من أجل واجب العزاء ثمة شيء انكسر. سؤال فادح غابت إجابته وكلما ازداد التحديق في صفاء الضحى ازداد العماء.

تنادي حفاظ القرآن من وسط الجمع دون صوت. قاموا. حفزتهم رغبة جارفة في مغالبة العماء بالترتيل. رغبة اجتاحت الحشد متنقلة بين القلوب المتراصة قلبا لصق قلب. مضي الحافظون يصعدون سلم الشرفة قليلين فاقدي الهندام ملهوجين، يتدافعون إلى الغرفة الداخلية المعتمة. ومن هناك بدأت تعلو حمحمة قلوبهم:

﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ.اللهُ الصَّمَدُ.لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ.وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾

إيقاع لطم الخدود وضرب الأرض بالكعوب، ومجاوبة الندابة بالصراع في مناحة النسوان انضفر ساختاً في جديلة صوت قراءة الرجال. ما هذا نواح ثكالى، بل غضب أكباد محروقة تهزج وجيعتها على رقصة محمومة وترقد نشيد سورة الصمد بلوعة حرى. تعتدل الموازين في قلبي. أقيم قامتي. أخلّي بين قلبي وبين هزيم صدور الخلق الزافر

بالهول، يطهرني وينقي من الأدران حزني. تترسل دموعي والناس ما زالت تأتي يقبلون عليّ.

- هذا هو حال الدنيا..!

- سعيكم مشكور..!

من أعلي الشارع يقبل الرجل طاويا قبضته على تصريح الدفن، وضامًا حجره على الكفن وجارًا وراءه الحمارة منكسرة ذليلة. أصبحت القراءة والمناحة رعدًا ترتج له الأرض تحت الأقدام. الرجل يتقدم بين صفوف المعزين الواقفين أو الجالسين جنب الحيطان ماذًا يده بالورقة المطوية يكاد يسقط على ركبتيه تأثما ومذلة. تقدم العم الكبير إلى الرجل حرره من حمله. ثم صعد به في يديه سلم الشرفة. سوف يمضي إلى الغرفة في الدوار. هناك سوف يخيطون الكفن منحنين على القماش متهامسين مثل نسوة حزانى يجهزن لبوس المفارق لغيبة طويلة.

حتى إذا ما انتهى الحفاظ من خياطة الكفن أعطوه للعم. نزل به سلم الشرفة كأنما يحمله تيار القراءة العارم. توجه إلى الدار القصية في الجرن تتبعه ثلة من الرجال. رأيتهم يقتحمون الدار على النساء. تفكرت أن الجسد سوف يغسل

ويطيب ثم يدرج في الكفن. انطلق من دار الميت صراخ النساء. البنات المذبوحات الوجوه بالدموع على الباب طيرن في أيديهن الطرح السوداء كطيور مرفرفة مشئومة، يشحن القلوب بالتفجع الأليم واللوعة الكسيرة. اضطرب الجمع بالحركة. نهض الرجال واقفين أشد ما كانوا جهرًا بالقراءة. ارتجفت يدا الشيخ بكر ووجهه مغبر صامد. برز من بين الناس أربعة شبان أحداث. خطفوا النعش من على الأرض واندفعوا به ناحية دار الميت يطير عاليا على أكتافهم وهم تحته كخيزرانات طويلة طرية حتى دخلوا به الدار. وحلت لحظة ترقب انبصمت تهدجًا عميقًا على قراءة الرجال. ثم خرج النعش بالجثمان من الدار ملفوفًا بالغطاء الأحمر القديم الذي بليت زخارف الكتابة عليه وتهرأت أطرافه. النساء مجنونات فزعًا وتلويحًا وصراخًا. غابة الأيدي متوترة مرتجفة الأصابع متشوقة ملهوفة مائلة على النعش الذي يتحرك في جلال قدمًا.

انشق الجمع الواجف بالقراءة أمام شرفة الدوار. تباعد الناس على الجانبين يوسعون طريقًا للنعش المتقدم إليهم. حتى إذا ما صار وسطهم التأمت الضفتان. يمضي الموكب

ناحية المسجد رصين الإيقاع مخلبا وراءه صـــراخ النســـاء. الميت طاف على رؤوس الناس. مـــا زال النســـر الوحيـــد المحمر العينين المليء الجسد بالقروح. أي ثمن فادح استأدته عودته إليهم، وأي ثمن فادح استأداهم رجوعهم إليه الموكب يمضي إلى المسجد.

هناك جرى الناس هلعـــين. خلعـــوا الأحذيـــة وقفـــزوا وأصدروا تحذيرات فزعة حتى خلصوا في النهايـــة بجســـم النعش من فتحة الباب مشوا به على الحصر. تتـــادى حملـــة النعش نداءات مبتورة مهتاجة. على الحصر وضعوه جنـــب المنبر قبالة المحراب. وجدت العتامة المطمئنة التـــي طالمـــا وجدتها في زدهة دوارنا. أسلمت روحـــي لـــذلك الســـكون النابض بصرامة الاجتماع في جوف المسجد. الـــنعش أمـــام الناس قائم مغطى. انتدب من بين الصفوف فقيا حدثا عليـــه ثوب رث من صوف الغنم. كبَّر ناويا صلاة الجنازة على هذا الميت. انتظمت من ورائه صفوف المصلين فـــي تكبيـــرات متتابعة متسرعة ملهوجة. أما الذين لم يكونوا على وضوئهم فقد بقوا متربصين ينظرون.

رفعت عيني فإذا بي أرى البيرق الكبير. قماشه الهائل مضموم على صاريه العملاق. هامته النحاسية الصدئة تكاد تلامس سقف الجامع. رائع وشامخ ذلك الأب الجليل. منذ متى لم أره حتى أنني نسيته وأفعم داء النسيان روحي باليتم. هأنذا أراه فأعود مرة أخرى ابنا فخورًا بأبيه سقطت الغربة والضياع واليتم وزكت روحي بإحساس رضي بالانتماء إلى نبالة قديمة. أين يكمن سر البيرق؟ أفي الهالة النحاسية التي هي قبة وهلال ونجمة خماسية؟ أم في تلك الخشبة التي هي شجرة واحدة عجيبة نبتت مأمورة وقطعت مغبوطة منذورة لتكون صاريًا لبيرق قريتنا؟ أيدي حملة البيرق تحتضن الجذع المبارك حتى أصبح صقيلاً وكلما ازداد الصقال ازداد اتضاح معدن الخشب النادر الذي صنع منه الصاري المقام عليه حمل القماش.

لا تسألني عن القماش فإنني لم أره إلا مضمومًا على الصاري. ولا تسألني عن الحكايات العجيبة، إنني قد أكون سمعتها وأنا جالس على الأرض مع العيال في الكتاب. أو قد أكون سمعتها من الرجال في الدوّار، أو من واحد من رفاق اللعب منتفخ البطن من مرض الطحال حتى امتاز بالسكينة

والعذوبة وكسب توقير العيال، يحكي لهم ويسمعون والمساء سحري القمر، يقول إن من لمس قماش البيرق ثم مسح به على وجهه وصدره يبرأ من العلل ولا يطوله الشر ولا يضيق عليه الرزق. فإذا ما جمّدت الدهشة القلوب وملامح الوجوه، استدرك العليل محذرًا من أن يلمس قماش البيرق واحد وهو نجس أو مغلول الصدر أو سيء القصد أو مضمر شرًا، إنه إذن تكسر ظهره لعنة البيرق. ضيعت عمري بين اللهفة على بركة البيرق والخوف من لعنته.

منذ متى لم أره؟ لا أدري! كل ما أذكره! انسلابي إزاء الكيان الشامخ يتخطر في موكب حاشد قد يكون جنازة أو زفة، لكن البيرق كان على أي حال مضموم القماش. لا تسألني عن الحكايات العجيبة، فقد نسيت من قال لي أن قماش البيرق لا تحل إضمامته ويرف جناحه الهائل في الهواء إلا إذا زلزل الدنيا حادث جسيم. ومن طيات القماش المضموم رأيت حروف كلمات النقوش لم تسر إليَّ بمعنى. وأنا لزمت الأدب ولم أشغف بمعرفة ما كتب. فقط حدس القلب أنها كلمات عوالم، بين حروفها يضطرب الحبر ويمتد الزرع والفقر وترتفع السموات العلى، وترن أعذب الأصوات

بأحسن المواعظ وأبلغ الحكايات. حدس القلب أن نقوش البيرق هي علمنا وهو قليل، وأنها علمنا وهو كثير بحيط بسر الموت والحياة وتقلب الناس بين البدء والختام.

لم أعرف حينما رأيت البيرق للمرة الأخيرة ولم أعرف هذه المرة من أين خرج. ولم أعرف في المرتين إلى أين يئوب. ولقد وطدت نفسي على ألا أسال، ورجوت ألا يحكي لي. كذلك وجدت في نفسي صدودًا عن التأريخ له. متى وكيف ولماذا ومن الذي صنع ومن الذي رصد المال والجهد. قنعت بيقين يشرق في روحي كالصبح بأن البيرق خرج من صفحات الكتب التي خرجنا منها. من يوم أن كان بيرقنا، يخرج لنا في فرحنا وفي حزننا، يتقدم مواكبنا ويعقد عزمنا، وهاهو منتصب شامخ يلقي بظله غير المرئي على جثمان عمي إبراهيم المسجي في نعشه أمام صفوف المصلين.

بعد الصلاة أحاط الناس بالنعش حملوه. تهادى البيرق الكبير سائرًا. مال حتى يخرج من باب المسجد ومن ورائه الميت طاف على رؤوس الخلق. حمل خادم المسجد حزمة من رايات حمراء في عصوات من الخشب الأبيض. وقف

على باب المسجد محتقن الوجه طائر التقية ميهدل الثياب من تزاحم الخلق عليه. ناول كل يد رايـــة. تخاطفـــت الرايـــات الأيدي وتدفق الناس مندفعين يلحقون بقطار الجنازة.

ازدحم الشارع بالموكب الجليل. عم بكر وعمي الكبيـــر على جانبي البيرق، كأنما يربت على رأسيهما مباركًا يكفين غير مرئيين ويتقدمان الجنازة مغمضا العيون وعلى وجهيهما عزم مكفهر أغبر قرير. الناس متلاصقون كتفا لكتف، فـــي أيديهم الرايات الحمراء يضمون القوائم الخشبية إلى الصدور ولا ينظر أحد للآخر، كلهم متعلقو الأبصار بالبيرق، متوحدو الملامح بجهامة مزوعة. وقع الأقدام ولهاث الأنفـــاس تغـــم مزلزل.

قبالة المقهى وقف البيرق، ثم مال مومئـــا، اضـــطرب الجمع وتداخل ليقف. ها هنا كان قلب الميت يهوى. مـــازال في قلب الصمت صوت اضـــطرابه واختلاطـــه بصـــعاليك المقهى. ما زالت ترن ضحكاته المجلجلة وزرايته بكل شيء. اجتاحت جمع الناس صرخة مكتومة. بكيت فيضـــا ســـاخنا

متدفقا. ما ظننت أن القلب البشري يمكن أن يختزن هذا النهر من الدموع.

مضي الموكب الهائل وئيدًا يحبس في داخله طاقة هائلة من خفض القلوب والأنفاس وخفيف الأقدام. ثم ما لبثت هذه الطاقة أن تحولت إلى ترتيل. ثم علت القراءة وتميز اللحن ينتظم كل القلوب. الدور على الجانبين، ما يسقط رجل في حفرة باب حتى يعود يقفز ملتصقًا بالجمع السائر. والنساء على الجانبي مقروحات الخدود ملوحات بالمناديل السود صارخات معولات يصنع تفجعهن إطارًا ساخنًا ثرًا لقراءة المشيعين.

خلص الموكب من القرية إلى أول السكة الصاعدة إلى القبول. مال البيرق ناحية البيوت في إطلالة وداع أخيرة. امتد الجمع على السكة يعلو صدره ويهبط مع كلمات القراءة. هوت القرية منحدرة في الخلف، والآفاق غارت مبتعدة حول آماد شاسعة في مركزها قطرة الموكب صغيرة. أقدام القارئين دقت على قلب سكة المقبرة في إيقاع بدأ يتسرب إليه الوهن من الذهول أمام شسوع الدنيا وغلبة الموت وقلة حياة الإنسان.

و فجأة علا الترنيل من الناس جميعا في آن وفي إيقاع واحد متدفق مجتاح. نغم غريب لم تجربة أبدًا آذان هذا النهار المزدحم بالشمس والغبار والزرع والشجر. نغم بحوث في قلب العماء بألف سلاح محرات:

مولاي صل وسلم دائمًا أبدًا

على حبيبك خير الخلق كلهم.

كانت هذه الكلمات حلية رقيقة على حيطان مسجد الأباصيري بالإسكندرية، يسقط عليها الضوء الملون بألوان زجاج النوافذ. كانت عذابا باكيا منغمًا في أماسي الحضرة في دوارنا في الغرفة المضوأة بالفانوس، يقرؤها الدارويش مكتوبة بخط النسخ المنمق في صحائف صفراء وهم مبحوحو الصدور متهدجو الأصوات. كانت هذه الكلمات سخرية متاحة لعمي إبراهيم، يرددها ويهز رأسه على إيقاعها هازئًا إذا مر به درويش من الدراويش. الآن هي لحن يرج النهار ويحاجج العماء، وأنا التصقت بالجمع أجاز بالغناء ووجهي مغسول بالدموع.

وإذا بقماش البيرق انطلق طائرًا. انفرد راية حمراء هائلة رثة متربة القماش مؤطرة بشراشف خضر حافلة صفحتاها بنقوش كتابة بحروف من قماش أبيض. القماش يصفق وجه الريح ويحمحم بجناح عملاق على رأس الميت المسجي في نعشه المحمول على الأعناق. أصيحت القراءة جنونا، ما تدري أصنعتها المعجزة أم هي صنعت المعجزة لكنني لم أر الناس أبدا أقوى مما أراهم الآن. وأنا لم أكن أبدًا أحد معرفة ولا أصفي روحًا مما أنا الآن جلجلت في داخلي كلمات الميت المحمول:

" من يمت إنما يذبح ذبحا، من يمت إنما يفني ويندثر ويصير ترابًا".

الصراخ في داخلي والعزم في قبضتي والراية تصفق وجه الريح بحلول والموكب يمضي ناحية المقبرة بلا خوف.

عندالقبور اندفع الرجال هاجمين. تقافزوا فوق المصاطب وحجوم القبور يتسندون على قوائم الرايات ويرتكنون على الشواهد. صنعوا حلقة وثيقة من الأجساد حول الحفرة المفتوحة في انتظار الجثة. والبيرق انتصب شامخًا يلقي بظله على القبر حُمل الجثمان من النعش على

أكف الرجال، يسير ماضيًا إلى اللحد دون أن يضطرب مساره بين صفين من الوجوه تهوى بالقبل على نتوء الرأس تحت الكفن. أتصور وجهه تحت الحرير الأخضر وقد اكتسي هدوءًا رائقًا. ها هو ذا للمرة الأولي يبرد نار قلبه ويصالح العالم ويخلد للصمت والناس يلثمونه في حب غير مشوب بالخوف.

استقر الميت في قبره. أهيل التراب حتى ردمت الحفرة. دار الشيخ بكر حول المصطبة وجلس القرفصاء مسندا جبينه على جدارها. ينصت إلى الصوت العميق يلقنه حجته. أسمعه لأول مرة هذا الصباح طلقا نافذًا. تحلق الناس حول القبر يحدقون. كأنما رأيت الميت في قاع الحفرة عند أقدامهم جهم الوجه متفكرًا. وصوت عم بكر يتدفق يواصل كلامه حارًا خالصًا كأنما يحادث حيًا من الأحياء.

أوشك أن أرى إبراهيم يفتح عينيه ينظر إلى محدثه منصتًا مبهوتًا. وعم بكر أصبح صوته منذرًا مجلجلاً:

فإذا جاءاك

وأجلساك وسألاك...

فقل لهما...

غبت عما حولي. وحينما أفقت كان عم بكر قد قام واقفا والناس حوله ينظرون متوترين ملهوفين. سألهم بصوت جليل:

-ما تشهدون...؟

و أتاه ردهم هزيما رج جنبات الدنيا

-كان صالحًا

برلين الغربية ١٩٨٢/٣/١٨

حكايات حول حادث صغير

الفتاة العمياء:

الجو مثقل بكآبة غريبة والشمس تؤذن بالمغيب، والعمياء الصغيرة متربعة بجوار السور على رصيف الإسفلت، يداها مبسوطتان على وركيها، ذابلتان سمراوان، لا عيون، حفرتان عميقتان متآكلتا الرموش، فمها واسع وشفتاها ممطوطتان مليئتان بالتوتر.

ترتل القرآن كفونوغراف قديم وكل انتباهها مركز في أذنيها وهي متصلة بأسفلت الرصيف اتصالاً وثيقاً، تتربع عليه وجسدها المرهف يلتقط بسرعة فائقة كل نأمة يحبل بها باطن الشارع وينقلها بسرعة فائقة إلى أذنيها فيتوتر جسدها كله وتمتلئ بالترقب.

فلربما في هذه اللحظة يختل نظام هذه الخطوات قليلاً ثم تتلكأ قبالتها هنيهة ثم يسقط قرش في حجرها. هنا فقط تتحرك يدها لتلتقط القرش وتقذف به في جيبها ثم تنتظم قراءتها مرة أخرى...

و هكذا، وقت ممطوط بلا نهاية تقطعه لحظات الترقب تلك التي لا تلد القروش دائما بل غالبا ما تمضي الخطوات مصممة، غير مبالية وتموت هذه اللحظات دون أن تعقب.

و الظلام الذي يلف متسولتنا الصغيرة ساخن خانق التصق وركاها وردفها بالرصيف التصاقا ملهوفًا. وأرهفت أذنيها وتطاول رأسها المفقود العينين واضطربت، كان ثمة خطر يخفق في أحشاء الإسفلت واهنا مترددًا لكنه يكبر مع اللحظات... أكيدا، واهنا يسير هذا الخطو لكنه وهن منتظم لا يشوبه اضطراب... يمر بها متجاوزًا إياها. وهكذا ماتت اللحظة عقيما من غير عقب.

لكن في ذلك الظلام كان ثمة شيء يموت، كلمات مختنقة ولهثات مريضة، ليس الخطو الذي يحبل به الرصيف هو الذي يعنيها هذه المرة، إنما تلك الكلمات المختلطة التي يحملها الهواء إلى أذنيها يا له من عالم مبهم، الأشياء تتحرك في الظلام دون أن تتخذ شكلاً ما، تحدث أصوات لكنها لا ترى.

-أنا هموت.

-الشر بعيد يا خويا

صوت رجل لاهث مقطوع النفس حزين كعديد الندابة، والمرأة، لعلها زوجته أو أخته.. هيه.. الناس يموتون كل يوم، لكن..أرهفت أذنيها لكنها فشلت في التقاط بقايا الحديث، غرق في ضجيج الشارع، ازدادت شفتاها توترًا وقطبت جبينها قليلاً...

ثم مرة أخرى واصلت ترتيل القرآن كفونوغراف قديم وهي تهز جسدها هزا مع القراء وتحكم اتصالها بإسفلت الرصيف لتلتقط الخطوات القادمة وتتصيد اللحظات المليئة بالترقب والتي قد تلد في حجرها قرشا.

من عدلي إلى الإسماعيلية:

المسافة قصيرة كعقلة البنصر، فهو قد رمق الرجل الأصلع الجالس خلف البنك العالي بلهفة ونوع من الخوف، والرجل أشار له على الكابينة التي يتكلم فيها فأغلقها بإحكام

ثم رفع المسماع الأسود وبمجرد وضعه على أذنه جاءه الصوت من الإسماعيلية.

-ألوه

وارتعد من المفاجأة.. لكنه رد بسرعة.

-أخوك مات

وتفكر كيف تمت المسألة بهذه السهولة، انتابه ارتياح، كان يتصور نفسه سيصعد جبلا عاليا.

لكن في الاسماعيلية كان التليفون الأسود يتقافز على المنضدة الصغيرة كطفل ملسوع، جرى الرجل والتقط السماعة فهدأ الجهاز في مكانه.

-ألوه

-أخوك مات

-لا حول ولا قوة بالله

وضع السماعة في مكانها وسمع (تكة) صغيرة ثم غرق كل شيء في الصمت والعتمة، والكراسي الكبيرة والنجفة، المصباح الصغير الساهر يلقي ضوءا شاحبا على رؤوس الأشياء ورجع إلى غرفة نومه، شريط ياهت من الضوء يشق

السرير، امرأته تحكم منامتها على نفسها حتى لا يتعرى من جسدها شيء، أغلق الحجرة ثم عاد إلى الصالة، جلس على كرسي كبير، كان من المفروض أن يدخن الآن سيجارة لكنه ممتنع عن التدخين من سنين طويلة، أولاده يغطون في نوم عميق، صوتهم يأتيه من غرفتهم هو وحده الذي أحس بعاصفة الضجيج تجتاح الشقة في الليل ثم (تكة) صغيرة ويغرق كل شيء في الصمت من جديد.

عليه أن يسافر مبكرا من صباح الغد.. أفلا ينام قليلاً...؟ لقد مات، هكذا ختم الموت هذه الحكاية، غريب، الموت دائما ختام غريب لكل حياة، يصيبنا بالحيرة والخوف، ترى هل يموت هو الآخر؟ حقيقة باردة كالثلج، ظلال حالكة السواد وبقع شاحبة من الضوء واقعة على السجادة، الرسوم تتلوى والورود تتخذ أشكالاً غريبة ترى هل نجح الموت في دفن تلك الابتسامة والنظرة المستهجنة الرافضة، ظلت هذه النظرة مغروسة في أيام حياتهما كلها، لكنه الآن مات، وها هي العتمة تغرق كل شيء والكراسي الكبيرة تستطيل مساندها كشواهد القبور، وهو وحيد هامد.

يجب أن ينام فإن عليه أن يسافر مبكرًا في الصياح وهناك سيكون هادئًا مكتسي الوجه بالأسى ولن يبكي، فهذا لا يليق ولكن ربما سكب دمعه في بعض المواقع، على أى حال سيكون صوته عميقا متهدجًا قليلاً، وسيأمر كثيرًا من المحيطين به، وسوف تعلق أحبال المصابيح وترص الكراسي وينطلق صوت المقرئ، وسيدفع تكاليف كل شيء، هو لهذه المواقف وغيرها ومن لها سواه من يوم أن خلقه الله، وحينما يوغل المساء سيكون جالسا في ركن من أركان المكان ذابل العينين ثاكلا حزينا، وهو هناك في القبر، ربما تكون عيناه في ذات اللحظة تبرقان بتلك النظرة الرافضة المستهجنة وتلتوى شفتاه بتلك الابتسامة الهازئة، ذلك الإنسان الغريب الذي طعن كل لحظات انتصاره بتلك النظرة وتلك الابتسامة تماما مثل ذلك اليوم، حينما جلس الجميع على الكنبات المرصوصة إلى جوار الحيطان في بيت الأسرة الكبيرة، وهو يحكي كيف توسط له عند المدير وكيف حصل له على عمل مناسب رغم أنه فشل في دراسته ولا يملك شهادة ما. ثم كيف سرق مخازن الشركة وباع المسروقات وأنفق ثمنها

على ملاهيه وأصحابه السيئين. وبالرغم من ذلك لم يقدم للمحاكمة، فقط فصل من عمله.. إكراما لخاطره هو...

كان يحكي وله كل العيون وكل القلوب، لكن أخاه كان هناك يرمقه رافضا مستهجنا...

ذلك الإنسان نصف المجنون الذي بدد أيام حياته، لكن هو اشتري كثيرًا من الكراسي ذات المساند ووعاء للطبخ يصفر حينما ينضج الطعام وزوجته تمتلئ عيونها بالرعب حينما ينظر إليها وأولاده يفوزون بالجوائز في الفصول.

لكن يبدو أنه لن يصيب شيئا من النوم تلك الليلة، مع أن سفرة الصباح طويلة شاقة، رأسه جافة ومخه يقظ بشكل يكاد يصل به إلى الجنون، ثمة خطأ بشكل أو بآخر لكن أين..؟ ولماذا..؟ يجب أن ينام ليسافر في الصباح، يجب أن ينام.

في تلك الفيلا البعيدة:

بالرغم من أن الجو لم يكن باردا إلا أنه كان معتادا على أن يحكم اللحاف حوله حتى أكتافه، وبالرغم من أن الفراش كان وثيرا إلا أنه لم يكن ينام إلا لماما، وكان يقضي

الساعات الطويلة يتأمل مصراعي الباب المغلقين وفي تلك اللحظة دخلت عليه زوجته.

-الكاتب مات.

لم يدرك ماذا قالت، ظل يتأمل وجهها دون أن يكون في رأسه فكرة واحدة ثم بدأ تساؤل صغير يزحف على عقله، لماذا تضع نظارتها الطبية في هذا الوقت من الليل، وشغله هذا التساؤل بقوة، ثم ثبت له أنه لا يعرف للآن لماذا صنعت نظارات طبية في حين أنها لا تعرف القراءة والكتابة.

- الصبح تروح تأخذ بخاطر مراته.. لله.

ثم خرجت وأغلقت الباب وراءها، وتأمل مصراعي الباب وهما ينضامان بإحكام.. مساحة بيضاء لا توحي بشيء.. وابتسم حينما رأى وجه الكاتب، في تلك الغرفة وسط أكداس صناديق الزجاجات الفارغة والمليئة، وذلك المكتب الصغير وصفوف الدفاتر السوداء الأغلفة. تلك الدفاتر تثير سخطه دائمًا، الصفحات والخانات والأرقام والكلمات. أسرار مبهمة لم يستطع طول حياته أن ينتصر عليها. صعد من الحضيض إلى القمة. دار بصندوق العدة في الشوارع يصلح السخانات والثلاجات. جلس القرفصاء أمام

أبواب الشقق. نظرت إليه مئات العيون المكحولة نظرات شذراء. ثم امتلك لنفسه فيلا وسيارات ومصانع لكنه لم يستطع أبدًا أن ينتصر على سر الكتابة. ذلك الكاتب الصغير كان يجلس على مكتبه في الحجرة المكدسة بصناديق الزجاجات الفارغة والمليئة ويمد يده وتحتضن أصابعه الطويلة الرشيقة الدفتر الأسود الغلاف في حنان وتفاهم ويفتح الصفحات. وتنتشر أمام عينيه الخانات والأرقام والكلمات صفوف من الوجوه الدقيقة الممسوخة تنظر إليك ببراءة وهي تخفي المؤامرات والسرقة.

-أدي دفتر الصادر يا حج.. ميت صندوق برقشان للمعلم عرفه.

إنه يدرك سرها ويلعب بي ذلك الكاهن. جهد خارق فوق طاقة البشر سنين وسنين من العمل المتواصل بلا هوادة وها هو ذا يقف صغيرًا زريا كحذاء قديم أمام ذلك الكاتب النبيل الجبهة وخصلات من شعره الفاحم تتسدل عليها في جمال.

-اطلع من مصنعي...

كان الصوت يرن في داخلـــه وتهـــزه الكلمـــات غيـــر المنطوقة بعنف تحت اللحاف

- اطلع من مصنعي..
- ليه يا حج؟...
- أنت كداب... ودفاترك كدابة.
- وديها للمحاسب.
- أنت تضحك عالمحاسب وعالمحامي وعلـــى وكيل النيابة وعلى الدنيا بحالها.
- أقول إيه أنا في الكلام ده؟
- ما تقولشي حاجة.. أطلع من مصنعي.. روح اشتكيني.. في أجدع محكمة. اشتكيني.. أشمع المصنع.. بس مش هتعتبه تاني.
- مش شاكيك يا حج رزق عيالي على الله.

ومشى خارجًا وذيل جلبابه يخفق على كعبـــي حذائـــه المطليين باعتناء. هكذا خرج...و بقي مصراعا باب غرفـــة النوم في تلك الفيلا البعيدة أبيضين من ورائه ومشي الحـــاج في أرجاء المصنع وداخله – تحت اللحاف– يهتز بالانتصار وهو يتأمل وجوه العمال المذهولة المتخيطة بالحيرة بعـــد أن

أبعد رئيسهم، بعد أن قطع الرأس المدبر، الآن فقدوا تناغمهم القديم، الآن يتحركون متخبطين بلا نظام لم يعد الإلهام يصدر لهم من حجرة المخزن..

كان يقلب صندوقا ويجلس قبالته طول النهار يرقبه والعمال يدخلون ويخرجون كأسراب النمل. لا يتكلمون، وهو جالس على مكتبه لا تصدر منه نأمة، ولكن ثمة لغة غير منطوقة، ثم قرون استشعار غير مرئية، والغيظ يأكل أحشاءه كديدان قارضة سامة.

-الإيراد صلاة النبي حلو أوي النهارده يا حج.

ترى ماذا يعني هذا..؟ ماذا يدبر ضده.. يتمنى لو يهب واقفا ويجري في كل اتجاه. ويقيم حراسا على الأبواب.. ويضبط السرقة، ويطعنه بزجاجة مكسورة أو نهش فيه بأسنانه، لكنه في غمرة غضبه يهزه الانفعال من داخله ويبقي خارجه راكدا.. هذا الكيان الدقيق الزرى.

- سهرتو فين امبارح.

- عند حميدو كان مطاهر ابنه.. عقبال عندك في أولاد أولادك.

- و القعدة بقي.. بتحكم..

- آهي بتحكم يا حج، المهم نكون الصبح في شغلنا..

جاءته الأخبار، كانت عزومة هائلة، كل بضعة أيام عزومة، وفي آخر الليل وزع على كل واحد نصيبه من السرقة.. أولاد الأفاعي..

-اخرج من مصنعي...

ومضي المعطف الكاكي يلامس أكتافه الدقيقة وفصل الحاج باقي العصابة والآن يمتلك المصنع لنفسه تماما...

وضع مكان الكاتب ولدا مفزوع العينين، والدفاتر تهرأت أغلفتها وتثنت أطراف صحائفها والمحاسبون يشكون من الأخطاء في الحساب، هؤلاء الحمقى هذا الولد لا يسرق أبدا كل شيء يسقمه، المحاسب وذلك الولد المفزوع دائمًا يود لو ينتزعه من مكانه ويقتنف به خارجا.

لقد مات الكاتب، كان يسرقني وأنا أسرق الخولجة أريستون.. لكنني لا أهين قروشي أبدًا.. وهو يسحقها بحذائه.

- يا بني كون نفسك.. للزمن.

يضحك ويظهر الاستخفاف على أطراف شفتيه.

خلي بكره على رب بكره يا حج.

إنه يحتقر الحاج بذكائه الخارق وجبينه النبيل – ذلك الكلب الذي لا يفهم لماذا تبقي ثمة عينان تنظران إليه هكذا..؟ ماذا يفعل ليخرس كل العيون..؟

إنه بليد يدرك الأشياء ببطء لكن هناك بضعة أشياء كان يجب أن يدركها ذلك الكائن – الحاج يؤمن بها بقوة – إنها حياته هو من غيرها لا شيء، لكنه لا يفهم.. لم يفهم أبدًا.

عند بائع الأكفان:

مشيا هما الاثنان، الأول طويل والآخر أقصر منه قليلاً، لأول يبدو حكيما رائق الفهم، والثاني قلق متوتر، فالمسائل لا تعطي نفسها بسهولة بل غالبا ما يكون العالم غير مفهوم.

مشيا هما الاثنان، انتهينا من الطريق المرصوف وبدآ يوغلان في الطريق المترب، انتهينا إلى بيت أصفر كئيب تتهدل شرفته على الواجهة في حزن وأمامه غرفة التليفون،

تليفون له كرنك، خفراء ذوي بنادق ووجوه ذابلة قرية لمت أسمالها على نفسها فالقاهرة زحفت عليها وأحاطت بها.

دخلا وجلسا على أريكة مفروشة بالحصير، كان ثمة بضعة وجوه، عامل التليفون عاكف على أوراقه، هنا يكتبون بانصراف تام وبقداسة، كان رجل ينعب:

- البنت أنا لسة مقيدها في دفتر المواليد ما فيش يومين.

رفع عامل التليفون وجها يتهدل عليه جلد زيتوني كجلباب قديم.

- البطاقة بتاع المتوفي.

و مد الرجل الطويل يده بالبطاقة، أفرغ الكاتب بعض بياناتها في أوراقه وأعادها تظر فيها الرجل الطويل وهمس لرفيقه:

- سنه ٤٦ سنة

- يا حول الله

وتدخل الكاتب دون أن يرفع وجهه عن الورق.

- لسه مقيدين عروس سن ١٨ سنة.. كان فاضل لها سنة وتأخذ الشهادة.

وضع الخفير بندقيته بجوار الحائط، ركن الجوزة بجوارها، جلبابه لا يزال رطبا من طل الليل، وهو نحيل كعنزة مريضة، سارا مرة أخرى في الطريق المترب، ضاق واكتنفته أكوام السباخ قال الرجل الأقصر قليلاً:

- حاجة مقرفة.

وردّ الرجل الأطول قليلا:

- مصيرنا كده.. يوم من الأيام نترمي في حفره أنتن من دي.

ووجدا الطريق المرصوف مرة أخرى، سار بهما، بدأت جوانبه تنشط بالحياة ثم تكتظ على الجانبين الحوانيت وعربات اليد، أكداس البضائع والفواكه، أنواع من الطعام والناس،عشرات اللافتات يعلو صياحها على صيحات الباعة ولغط الناس.. لكن اللافتة على دكان بائع الأكفان باهتة هامسة، نظرًا إليها معا، ربما في نفس اللحظة، ثم انحرفا ومشيا تجاه الدكان ثقيلي الخطي.

صعدا إلى الرصيف، الدكان عميق معتم، يخالط العتمة أريج زيت عطري قديم، كان الرجل جالسا على كرسي في قاع الدكان.

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وانتصب واقفا، عملاق خرافي الحجم خرج من صفحات ألف ليلة وليلة الوجه الهائل الملامح يطل على الرجلين في تساؤل.

- عاوزين كفن.. شرعي.

وأغمض العملاق جفنيه واكتسى وجهه سكينة جليلة، ورفع يده الهائلة ناشرا السلام على الوجهين المتوترين.

وسحبا كرسيين، قرصين صغيرين كل على أربع قوائم هزيلة، جلسا في حذر بالغ، تشبثا بالبنك أمامها ليدعما جلستهما وخطى الرجل وقورا في أرجاء الدكان، وتنحيا بالكراسي ليفسحا له الطريق وقف على عتبة الدكان مديرًا لهما ظهره، واقتربا أكثر من البنك، الرفوف صاعدة إلى السقف وفي الخانات توجد أنواع مختلفة من أثواب القماش، عاد الرجل ومعه صبي المقهى القريب، الصبي عجلان يخيط

بالمعلقة على الصينية النحاسية، مضي يحمل رغبات الشاربين.

أطل بائع الأكفان عليهما، إنه ملتح معمم بشال أبيض يبقي منه عدبة تتدلي على قفاه.

- حضراتكم عوزين الكفن الشرعي.. ولا هتبحبحوا شويه.
- السنة يا حج.. أنت أدرى طبعا.. في حدود المعقول..

جاء تساؤله عميقا حاسما.

- أنتم متبرعين بشرا الكفن..؟
- لا.. لا.. بس أولاده أولى.
- الله مولى من لا مولى له.

وبدأ ينزل الأثواب من الخانات، يفردها على البنك ويقص القماش، تلك سترة.. ذلك قميص، ومزق القماش من حيث تدخل الرأس والآن ثلاثة أدراج من البفتة والكتان، ثم درج شامل من الشاهي.

طوى القماش ووضعه تحت إبطه وتحركت الكراسي الصغيرة والأجساد المتوترة تفسح له الطريق، عاد ومعه رجل هزيل تتحرك عيناه بسرعة ويفرك يديه بإلحاح.

-الأسطى خياط.. جارنا.. مسيحي.. مش من ملتنا، شافني بدور على حد يخيط الكفن قال أنا أعمله.. فهمته على شرعنا وطريقنا هيخيطه تبرع من غير فلوس.

وانصرف الأسطى حاملاً القماش، وتابع الحاج.

-ولد طيب.. لهم الدنيا.. وما لهم في الآخرة من نصيب.. كان وجهه حاقدا رهيبا.

فجأة انصرف بكليته إلى رجل صغير يقف متلجلجا على عتبة الدكان شفتاه ترتعشان بكلمات مبهمة، وصرخ فيه مسلطا عليه وجهه الرهيب مفعما بالقسوة والغضب.

- عاوز إيه
- كفن.. رجل مسكين ميت.. جارنا.
- كذاب.
- والله يا حج.
- كذاب.. فين تصريح الدفن.

- أجيبه.
- هاته.. أديك كفن.. هاته.. إن كان هعرفه.. يا كلاب يا حرامية.

انطلق الرجل يجري وثورة يائع الأكفان تطارده.

- بيجيبوا تصاريح مزورة عشان ياخدوا أكفان.. بس أنا بعرفها..

ثم بدا وجهه يغيب وراء سحابة من السكينة.

- ما دام التصريح مضبوط يأخذ كفن.

ثم أصبح هادئًا رقيقًا خجولاً كطفل مذنب.

- الحسنة اللي تيجي من ناس زى حضراتكم.. ما تخشش بيتي.. إحنا غلابة.. ما لناش في نفسنا حاجة.. ربك يجيب من هنا يحط هنا.

و جاء الكفن، فرد مخبطا على البنك.. هكذا يدرج فيه الميت... ثم يطوى.

وجوه في الزحام

جلس الولد أمام عجلة القيادة كالدجاجة المسمنة، منتفخ الأوداج متجهما وجلست أمه بجواره تحرف وجهها

ملليمترات لليمين ثم تعود وتحرفه ملليمترات للشمال، وتساؤل يطن في أذنها أي الأوضاع أكثر ملاءمة..!!

أما الأب فكان جالسا في المعقد الخلفي، رأى وجهه في مرآة السائق فضحك، لم يكن الضحك ملائمًا لكنه ضحك.

ثبت الابن بصره على بقعة من الإسفلت أمامه، تلك البقعة الطائرة ومقدمة السيارة طافية على ليونة الطريق، قرر الابن بشك حاسم أن ذلك التصرف لم يكن لائقا استعرض الموقف بكل دقائقه والحوار النقاط التي استند إليها كل من الطرفين، صر على أسنانه وأحكم يديه على عجلة القيادة، سينتهي من ذلك العزاء على وجه السرعة ثم يعود، وفي المساء سوف يعلنه بقراره.. لن يتزوج ابنته!!

و تساءلت الأم: ترى من سيكون هناك.. هذا.. وتلك.. كلهم سيرون العربة الجديدة، هذا أحسن ما عمل في حياته، طول عمره نصاب سافل كاذب، لم يعدم وسيلة لابتزاز مالها، بل كلهم لم يتمنوا لها خيرا أبدا، كلهم سفلة أدنياء كانت تبكي لكنها تحسست العربة بقوة وأعادت دموعها إلى مآقيها، ولفتت نظر ابنها إلى أنه مسرع أكثر من اللازم، ثم ضحكت.

وضحك الأب لهذه المرآة اللعينة مراة العربة، حوقل، لكن الضحك يغلبه، المرحوم كان ابن حظ، الضحك يملأ بطنه، المرحوم كان نصابا عالميا، لم يصدق قط إلا في الشهادتين وبعد ذلك كل كلامه كذب والجنيه وراء عينيه، ينفقه في قعده، ها هو قد مات ذلك المتلاف الخائب، قاتل الله تلك المرأة.

***

أكداس الناس تضغطه من كل ناحية، تطاول برأسه إلى أعلى ليتنفس لكن الهواء في سقف العربة ساخن والشنطة في يده ثقيلة تذهب وتجئ مع كتلة البشر المتماوجة وتجذب يده تكاد تقلعها من كتفه يقف على قدم واحدة والأخرى معلقة يجوس بها باحثا عن مكان يريحها عليه، لكن الأرض كلها أحذية متراصة، وحيثما حارت عيناه تصدمان بعيون منذرة بالثورة اكتسحه إحساس عارم بالقرف وتدلت ربطة عنقه السوداء وفقدت احتضانها الحميم لياقة قميصه، وتهدلت ملامح وجهه، تندى جبينه بالعرق والتوت شفتاه بالغضب المكظوم لعن الحماقات والطقوس التي تحيط بالموت،

وجلوس الناس كالدمي المضحكة ينصتون إلى مقرئ القرآن لا يستمعون إليه، حماقات مقرفة تأتي بالناس من أقاصي الأرض ليمثلوا أدوارًا هزلية في لعبة لا يعرفون من مقترحها.

ثم أحس بتربيت على ذراعه، وتملص في الزحام كدودة تتلوى في طين ساخن، ثم لمح رجلاً يقدم له مكانه، ذابت قطرة السكينة وانتشرت في روحه كلها، أصعد تنهيدة عميقة وهو يلقي بجسده كله على المقعد وفي وجه أرواح العيون المسلطة عليه في حسد وغضب أشرع وجها مكتسيا بالحداد وأحكم رباط عنقه الأسود، وذابت عيونه بنوع من الأسى مفتعل وثم بدا يعزل نفسه ناظرًا من الشباك غارقا في تيار المارة والزحام والواجهات واللافتات الأشياء تتخذ أشكالاً غريبة وتوحي بأفكار مضحكة، أليست حياتنا هذه شيء يصعب فهمه، بل إنها لتصيب الإنسان بالدوار.

كان التزام خاليًا ذلك التزام المتهالك الوئيد، وكان الكمساري رجلا عجوزًا طيب الوجه، ترنح مع الاهتزاز، ثم وقف أمامه وعيونه مبتسمة مجهدة أعطاه القرش وعلى مهل قطع الكمساري التذكرة وأعطاها له، ثم تلكأ قليلاً كأنما

يعز عليه أن تمضي (المناسبة) دون أن يتبادلا حديثًا ما – هذان العجوزان – لكنه مشي في النهايـــة يتـــرنح وينشـــر خبطات هينة بقلمه الحديد.

صوت العجلات في القضبان والعربـــة تميـــل مغيـــرة مسارها، ذلك الصرير المعدني المتطاول، ثم أعطى الســـائق للعربة أقصى طاقتها فانطلقت طفلة فرحـــة يهتـــز جســـدها وتصدر أحشاؤها أزيزًا منغمًا طروبًا.

وأغمض الرجل عينيه غاب أشياء من الزمن القديم، لم تكن الطرقات مزدحمة هكذا، كانت الترام تسير وسط الشارع تماما، وزمارة الكمساري تخلق فيها الحياة وتطلقهـــا علـــى القضبان، لكن الشوارع الآن مزدحمة خانقة... ياه عربـــات من كل شكل ولو أنت لا تكاد ترى الإسفلت، وجوه في كـــل شبر وجوه.. وجوه... وجوه.. متوترة عدائيـــة يـــا للعزلـــة تداخل في نفسه ترى كيف يكون عزاء اليوم.. وكيف يكـــون العزاء يوم موته.. إنه حزين منن أجل إنسان يموت.

* * *

انحرف الأتوبيس فجأة وبقوة وطار التاكسي متجنبًا ثقل الأتوبيس الذي كان يسحقه، لحظة رهيبة تقاربت فيها كتلتـــا

الصلب إلى درجة التلامس القاتل، ابيض وجه السيدة السمينة وتثلجت أطرافها وألقت رأسها مغمضة العينين على مسند الكرسي الخلفي في التاكسي، وأمسك رجلها يدها بقوة وبحنان عميق.. وجه مكتنز شوهته السمنه، كم كانت جميلة وهي عروس، كانت خارقة الجمال، ماذا فعل بها خلال هذه السنين، كان يحب جمالها ويرتعب منه، قتله عامدًا حولها إلى شيء أبله خائف مهين أشفق عليها إشفاقا عميقًا، يالقسوة الإنسان الوحشية، لماذا لا يكون الإنسان رفيقا قليلا حتى هذا الذي مات، كان فيه بعض الجوانب الطيبة لم يكن ضارًا على الأقل لم يلحق بأحد ضررا بل ربما ساعد شخصا ما في وقت عصيب.. من يدري.

* * *

يجب ألا يراها أحد وهي تخرج الجنيهات الخمسة وتضعها في يد زوجة المتوفي، يجب ألا يراها أحد الحسنة التي يراها الناس تفقد قيمتها عند الله، لذا يجب ألا يراها الناس، ستعمل ما وسعتها الحيطة، ستدعوها جانبا، لكن ماذا سيقولون عن ذلك الحديث الجانبي سيخمنون بلا شك، إذن طريقة أخرى سنصافحها وتترك الورقة المكوره في يدها،

لكن ربما سقطت على الأرض لأن الأخرى لن تكون مدركة لما يقصد من المصافحة.. لا.. لا.. ستقول لها: ياه تصوري هذه أول مرة أرى فيها بيتك في حياتي.. ماذا يوجد هنا.. غرفة النوم.. مسكن جميل وخلسة تضع النقود في يدها، فرحت بحيلتها وملأ روحها جلال ديني رائع، لكن في طريقها صدمت رجلا يحمل لوحا مرصوصًا بالأرغفة وقال الرجل لها كلمة بذيئة وتمزق الجلال بلا رحمة ومشيت مهينة واكتشفت أن الشارع قذر تملؤها الروائح الكريهة، وحنت بقوة إلى كنبتها وفراء الخروف الناصع البياض المفرود عند قدميها.. يا له من فراء جميل.

لن يعود أبدًا

دخل الرجل وفي يده ورقة صغيرة.. تصريح الدفن.. الرجل عيناه ضيقتان متآكلتا الرموش.. لكنها تحملان حزنا عميقا.

المكان ضيق.. أشكال رباعية غير منتظمة تحدها جدران قذرة مصمتة.. والأبواب قميئة ضيقة، لكن الناس هنا يملكون دربة غريبة على بذل أكبر كمية من الحركة في هذه

المساحة الضيقة.. دعويون كبناديل الساعات يروحون ويجيئون وجوههم صخرية قائمة من العناء وسوء التغذية ومكتسية بالحزن والصرامة فروات رؤوسهم مجدبة خربة.. وأذرعهم طويلة تحمل في نهاياتها أكفا كبيرة صلبة.

في الركن وقف رجل عجوز.. جاف كفرع سنط.. لا عيون، يرى من خلال بقعتين ضوئيتين كحشرة بدائية.. تحمل خيوط وجهه حيوية رسم من العصر الحجري.

-مستنيين إيه.. عيزين نغسل الجثة.

وانطلق من ركن قصي صراخ طويل ممطوط. بضع عشران من النساء في نفس واحد.. لا بسات الأسود.. وجوههن محتقنة بالدم مغسولة بالدموع.. انتشر في الجو المعتم شيء غريب، أصبح السرير الصغير في الغرفة الداخلية – حيث يسجي – في بؤرة كل شعور، تقلصت وجوه الرجال الصلبة بمشاعر ذئبية.. زادت الحركة البندولية سرعة، أصبحت محمومة خلع ذلك الرجل العجوز جلبابه، ركن عكازه على الحائط ولوح بيده العجفاء.

-بنات بكر بملو مبه جديدة.

أصبحت الهمهمات والكلمات المبتسرة والأوامر السريعة غارقة في ولولات النسوة النائحات.

وكان ثمة بضعة وجوه ملتصقة بمقاعدها في ركن آخر.. وجوه متميزة فهي ريانة أكثر، ولها ألوان. ولكن حركة أهل الحتة النشيطة تعزلهم رويدًا رويدًا من أول الأمر كانوا دهشين أكثر منهم حزانى لقد أخذ هؤلاء الناس حزنهم كذئاب غبراء، واحتفظوا به لأنفسهم ونظروا لهؤلاء شذرًا وتجاهلوهم وعزلوهم.. تلفتوا حوليهم.. تداولوا فيما بينهم سؤالا – تداوله سرًا كقطعة من المخدر.. أليسوا أهله؟

لكن الحركة في الدار ازدادت حمى.. دخلت البنات حاملات صفائح الماء لابسات الأسود يمسكن أطراف جلابيبهن يحسرنها عن سيقانهن قليلاً ويحملن صفائح الماء كراقصات معبد مصري قديم.

دارت البوابير لتخسين الماء وتقدم الحانوتي. وجس الماء وأعلن أن حرارته مناسبة.. وتقدم إلى تلك الغرفة وراءه الرجال في كتلة متلاصقة، الميت ممدد على السرير، مد يده وكشف وجهه. شاحب. نفس الجبين النبيل والشعر

الأسود السبط بشوبه بعض الشيب.. والعيون مسبلة في صفاء. بعض ساعات السرور مع الأخوان. وإن صمت ثم انطلق صراخ النسوة الطويل الممطوط. عشرات منهن في نفس واحد.. المجموعات هنا تتحرك في تجانس غريب.. عند رأس الميت لوح الكاهن بيده.

-مستنيين ايه.. عاوزين نغسل الجثة.

دب اللغط.. الكلمات المبتسرة والأوامر الصارمة وعويل النسوة في الحجرة الخلفية.

رفع الجسد إلى طاولة محشورة بين السرير والحائط في الركن كان الحذاء الذي ظل لامعا أبدا.

نشر الكاهن غطاء أبيض فوق الجسد المسجي ويداه الخبيرتان جردتاه من ثيابه وأراق الماء على جسده من تحت الغطاء وهو يصرخ بلا انقطاع (أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله) وراءه أنفاس الرجال مقطوعة وكلماتهم مبهورة لاهثة والكيزان تصك صفائح الماء في وقع مضطرب مذعور.

* * *

وضع على الجسد إزارًا يستر عورته ثم نحّى عنه الغطاء الأبيض ويديه على الطاولة. مسيح مغسول بالماء الدافئ يميل وجهه إلى اليمين قليلاً وانهمر نشيج الرجال بلا خجل كالنساء، وتجاوب صريخ النساء فاجعا مريرًا.

ثم بدأ يدرجه في الكفن- قميص ثم ثلاثة أدراج ثم شعار من الشاهي وربط لفة القماش عما يجاوز الرأس ومما ينزل عن القدمين وربطه عند الوسط ورفع ذراعه إلى أعلى صائحا

﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ.اللهُ الصَّمَدُ.لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ.وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾و انطلق كورس الرجال وراءه في حمى مجنونة وصراخ النساء سياط طائرة تجلد الهواء. وحمل الرجال الجسد على السواعد مملوءًا بالسكينة وسط الضجة الرهيبة وخرجت كتلة الرجال محشورة من البيبان والنعش رابض في ساحة ضيقة مدد فيه، وتساقطت الرؤوس على الجدث، من كل شكل ذات فروات خربة، أو مغطاة بألوان من الطواقي يقبلون الراحل.

حمل النعش على الأكتاف خارجًا من الباب، ولجزء من الثانية حل الصمت.. لن يعود يدخل من الباب هذا أبداً...

يا له من حسم لا يلائم طبيعة الإنسان الهشة.

انطلق صراخ كاسح..

عن الذباب:

عشرات من الأقدام، أشكال من الأحذية شوهاء غليظة تزحف على صدر الأرض، جرجرة النعال على الحصى متهدجة عواصف صغيرة من التراب.. ذبابات تزعجها الجلافة المجتاحة.. تطير تطن في عصبية.. تدور بضع دورات ثم تعود تربض بشراهة على صدر نتف صغيرة من العفن.

ثمالات من صراخ النساء تتباعد والحانوتي يقود موكب الجنازة في الشمس بلا ظلال والنعش يطفو على وجه الكتلة البشرية ثابتا مستقيم الخطوط فوق انحناءات الأجساد الإنسانية.

- استغفروا لميتكم.

-ويلوح الحانوتي بعصاه. صرخات رجالية بين الجميع وتجفل القلوب بالاستغفار.

أكداس البيوت تتساند في وهن والحواري تتسرب بينها في دهاء وفي مقابلتها تقبع القبور مكبة متعامدة السطوح ذات أبواب حديدية تتدلى من صدورها أقفال صدئة.

وضع النعش على الأرض.. وتحلق الحشد حول فوهة القبر.. ضرب باب الحديد حتى فتح.. جوف القبر معتم.. الطرقات على الباب الحديدي كانت قد أقلقت الذباب.. طن مستاء دائرًا حول خمسة أجساد مسجاة اسود نسيج أكفانها بالتراب.

ضحك رجل بلا معنى.

- الخمسة أبويا وعمي وأخواتي..

ثم ضحك مرة أخرى مذعورا حمل الجسد على السواعد وأدخل في القبر. سوّى التراب من تحته ثم أريح في مكانه.. أغلق الباب وسادت العتمة... عادت الطمأنينة للذباب.. طن في عذوبة..

(مجلة" المجلة" - أغسطس ١٩٦٧)

البيع والشراء

الليل

والمصباح على الدكة الواطئة الممتدة لسان أصفر مضيء تعكس خيالاته على الزجاجة الشفيفة الغبشة وعلى خزان الكيروسين الخزفي الأبيض، والمرتلون يقدمون عبادة أليمة تحت أقدام الليل الهابط ليل هاتور البارد العاري النجوم.

في أمان هم داخل جدران المسجد الغليظة لكن القلوب تدرك لذعة الريح السارية في غلائل الظلمة، وتسمع الوشيش الكامن في هامات الشجر وحطب عرائش الدور، والعيون تطرف ناحية اجتماع العتامة الباردة تحت السقف العالي، يكبسون الطواقي الصوفية في الرؤوس الحليقة، ويحكمون الملافح حول الوجوه الزيتونية المهولة الملامح بالظلال ويلفون الأقدام بفضول الجلاليب، ويتضامون حتى تتراكب السيقان المطوية ويقربون من العيون نسخ بردة الأياصيري ولكن ذبالة المصباح تهوي، والعتامة الباردة تهبط آتية من السقف العالي، تتحشرج الأصوات مكسرة حتى تنتهي إلى

بحات قلوب متزاحمة يتصافحون في همس موجز، تمتد الأيدي تبحث عن النعال مترددة.

وحارت قدمه عمياء تبحث عن المداس، حتى إذا اصطدمت به تسللت بطأ مستقرة ذائقة لذعة البرد الكامن في النعل، يستند على عصاه ناقلاً قدمه الأخرى من على حصير المسجد عابرًا العتبة العالية عيناه تصعدان وجلتين على جدار العتمة، وقدماه تزحفان تتحسسان أرض الطريق وعصاه تهمس في الأرض همسا معدنيا خافتا، يحتضن عقفتها في كفه احتضانا قويا.

فالليل حل، لم الحياة والدفء والضوء حبسها في القيعان، باحات الدور والغرف المصمتة الحيطان وانبهمت أواخر التسابيح في أفواه الرجال الأبيين يخبون في الجلاليب، يقرنون السلام عجلانين مخافتين يعرف أشخاصهم من هياكلهم الحالكة المرسومة على العتامة لكنهم يغيبون في الحارة المكبوسة بالليل.

قلبه ساكن سكون الماء في قناة صغيرة، يحمل على صحته لمعان نجمات مخافتة بعيدة، متوجس كأنما ثمة جندب يحفر مثواه في طين الشط، فالمبيدات الحشرية قتلت الطيور،

وأعشاش مالك الحزين على فروع الجميزة القديمة باردة مهجورة، وبين السماء والأرض تحلق كآبة ساهمة، وحول كومة الدور يترسل امتداد الحقول الشاسع صامتًا كقاع الجب، والرطوبة تتسلل إلى جذور العيدان القديمة تهلكها، ومن المثاوي الطينية تهجم جحافل الدود، تدفع أمامها رؤوسا سوداء قارضة مبيدة.

الأفق الغربي ينوء بأحمال الغيوم الداكنة الجهمة، لكن نجمات طفلة تقلت تتنثر على صفحة السماء، يتملى البريق الخافت وعلى الجانبين تستضئ واجهات البيوت، وتبين رسوم الأبواب والكوي، إشراق ليلي أسيان تزحم القلب مشي وسن العصا المعدني يضرب قلب السكة في وقع متحسن وئيد.

هذه العصا.. منذ متى يرضب سنها في الأرض موقعا علاماته الميقاتية على مسرب الزمن المتطاول، كم توغل البداية بعيدًا في غبش النسيان لكنه – بهذا القلب المثقل – يرى الشيخ، حديثه متدفعة في عتامة المغرب، وهو يتبعه هزيل الجرم– في يقظة حذرة متشوفة ذليلة، يسيرون نحو

المسجد وشيش الجلاليب ووقع الأقدام يحبط بنقرات عصا الشيخ الموجزة الحاسمة.

رحم الله الشيخ رحمة واسعة كان شيخه وأباه مولاه كان يقرأ البردة في ليالي الحضرة بصوت يشق القلوب كسلاح المحراث، وهو يجلس قبالته يتأمل جسامته الراسخة كمجذوب منسحق إزاء بهاء قبة السلطان.

رحمه الله، يوم مات طار الفزع في قلوب العيال والأنفار والنساء، كما تطير النار في الحطب القصيم وجثمان الشيخ مسجي في الغرفة المعتمة البعيدة والعصا ملقاة مغبرة بتراب الأرض في ناحية من نواحي الدار، التقطها مسح عقفتها الناعمة، أخذها لنفسه.

لم يذرف في الجنازة دمعة، كان قلبه مزدحما بهزيم انفعال مضطرم غريب وهو يرى النعش الهائل يثقل أعناق الرجال يتبادلون حمله منفلتين من تحته سراعًا، والقرية كلها خلفه، النعال في الايدي وذيول الجلاليب تحت الأبط، الناس ذاهلون مضطربون حول النعش الذي يمخر الجمع مترجحا ثقيلاً.

و حينما أدخل القبر قفز قلبه يستقبله وفي الجوف المعتم الرطب الطنان سجاه تحسس الجثمان الذي ما زال طريا، حل عنه الأربطة وفك الحياكة، تطلق الكيان الجسيم مفترشا لثري في جلال تهدج صوته بالقراءة كأنه بين يدي الشيخ في ليلة من ليالي الحضرة، تقدم منه – تهمي من قلبه الدموع – ركز كفيه في الثري على جانبي الراس، هتك الكفن عن الوجه، مغمض العينين مطبق الشفتين اكتسبت ملامحه صلابة جرانيتية لا تقهر، نهض وئيدًا، مثقل الروح والقلب بيقين راسخ، عليه أن يخرج من هذا القبر يعتقل العصا ويمشي في الأرض تلك الخطي الثقال فما يجعل الثري يتطامن في مواطن أقدام العلوج سوي خطو الرجال ذوي العزائم.

وها هو يتخذ العمامة ويشتمل عباءة الكشمير ويعتقل العصا ويندفع في عتامة الليل الرصاصية. يتوقف العزم في حدبة ظهره وعضلات بطنه، وتثقل القوة ساعدية وترسخ في ساقيه، والسكة تزسب بين صفين من واجهات الدور واجهات رمادية منصرفة صامتة.

الأفق الشرقي زحام من النجوم، نجوم متلألئة فرحة كعيال العيد، تولد في القلب البغتة الخافقة، تطير الأشواق في خيوط عنكبوت متلمسة، يستيقظ التوق الراجف في نوبات الخلايا وعلى البعد قطة تموء شوقا، أو كلب يعوي وحده على سطح دار، امرأة تنادي نداء مبحوحًا مستطيلاً على جديها الأبق.

لكن الوضوء يحصره، نقل على عرائس جنينية في رحم اشتهائه تريد أن تتخلق تطلق أجنحتها وتحلق مال يبول عند اسفل الجدار، وإذ يتعرى تسفع وركيه نسمة باردة وكركرة سيال البول في التراب توقظ في جنبيه وشوشه داغرة مسرورة.

رحم الله الشيخ، كان تيسا فحلا داعرا ظل يولد نساءه الأربع إلى أن مات، ملأ الدار الكبيرة بالعيال، يجوس فيها بسلط على لحوم النساء – زوجاته أو نساء الخدمة– نظرات كسواطير الجزارة، ثم يزأر فيوزع الرعب على القلوب وينطلق خارجًا.

وكانت أمة واحدة من نساء الخدمة، امرأة شامخة لحيمة بيضاء، أترى ركبها الشيخ ذات ساعة ساخنة في كبد الليل أو في صميم الظهيرة، اتراه سحق لحمها الوثير الأبيض بثقل جسده العضلي العارم في عتامة قاع من قيعان الدار هل كان أن أبعد الشيخ اباه الضرير القمئ المعلول بيمينه الهائلة ودس في رحم الأم نطفة تخلقت هذا الكيان الجسيم ذي الحدية العضلية واليدين القرديتين الباطشتين.

ما أغرب ليل هاتور، حينما تندفع النسائم الباردة في غلائل الظلمة اندفاع اوائل الماء تبرق عيونه في شقوق الأرض الشرق، اشتمل عباءته، لفها على جسده، أدخل يده في جيب جلبابه، باردة تتلمس الدفء في طيات الثياب التحتية، تنفرش على سخونة لحم بطنه، تتصب العضلات متصلبة في قشعريرة يلقي بنفسه متحسسا في عتامة الليل الصموت.

ما كان الشيخ بالرجل الذي يزني بنساء الخدمة في نواحي الدار، كان يكبح رغباته كما يكبح الرجل الشديد سطوة الثور العارم، كانت جهامته حيسا غليظاً على شموس فحولته لكن جسد الأم الشامخ كان يتطامن ذليلاً بين يديه

تتعلق نظراتها به مفرجة الشقتين مفرجة الساقين، بتزق ثوبها الوحيد عن كنوز لحمها المباحة العريانة، يزأر بها الشيخ كظيما ثم ينطلق خارجا.

وتبقي المرأة قعيدة ركن قصي تئن على الشيخ أعضاؤها فإذا ما تسلل إليها الأب في هدأة الليل يسيل لعاب شهوته على صدره أسلمت له لحما ساخنا يلهيب العذاب يزفر آهات حرى شوقا للشيخ.

زني الشيخ بالأم أن شوقا وان مخالطة عرقانه، أسلمت المرأة رحمها للشيخ أن تحنانا وان انسحاقا تحت سخونة لافحة مجتاحة. وفي الحالين تخلقت نطفته من زني نجس حرام، وها هو يتخذ العمامة ويشتمل العباءة ويعتقل العصا ويخطو على الأرض تلك الحظي الثقال، لكنه في نهاية الأمر فقيه القرية الدائرة بالقرآن على باحات الدور في الاصابيح هو في نهاية الأمر مؤذن الجامع وحارس دورة المياه.

هذا الليل يحني الهامة ويثقل على القلب كسجن ذي طبقات عالية بعيدة والنجوم مرتجفة كعيون العيال المرعوبين.

كان أبوه يجرجره إلى احتفالات القراءة الذليلة في المآتم وليالي النذور وجمع الفقهاء العميان محبوسون في الغرف المفروشة بالحصير يمسحون على رأسه يباركونه بأيد عرقانة، يدسون في روحه خنوعًا، ثم يعزقون، يطنون بالقرآن كالذنابير الحمر المسمومة، يتلفتون توقعًا وتوجسا، تسيل رغباتهم الصفراء على صدرهم، إلى أن يأتي صاحب الليلة يودع في أيديهم القروش، وإلي أن تأتي صواني الطعام، يقبلون عليها أقبال الكلاب الضالة على الجيفة المطروحة.

كان عليه أن يفر يلحق بالشيخ في حقلة المدد تحت الشمس يبقر بطنه بسلاح المحراث ويسوط بالصراخ ثورية المعلمين لكن ذلك مقدور قدرًا نجسًا خالط نطفته ابتداء من ساعة زنا أسلمت فيها الأم رحمها للأب القمئ في حلال ذليل رغيم أو اسلمت رحمها للشيخ في حرام وحشي ملعون.

قدر كفله جثث الموتى يغمضها ويغسل منها نجاستي، كفلة دار به حطه تحت شواهد القبور يقرأ القرآن بثمن قليل كعكات أو حفان تمر، زوجة بتلك المرأة – بنت رفيق أبيه

الفقيه الأعمى – امرأة شاحبة هلوع زائغة العين مخرقة ضيقة الحوض يعيد المأتي يلا رحم كالنحلة الشغالة.

لكنه ابدا ما خاف، ما قبع ذليلاً تحت أقدام الحيطان، ما خنع للكلمات الجوفاء الحكيمة ما شبع من لحكم المآتم ككلب الجيف، ما مشي حول القرية متضعضعا كسيرًا في ثوب الفقهاء الطاهر الناضح بالعرق الدسم عند الأكتاف لطخ بروث الدنيا ثوبه وروحه، حفر الأرض بأظافره، حصد بيديه واسنانه، حاش عن معاشه بمخاليه كالحدأة، ملأ مخازنه بالغلال وطيقان الدار بالقروش، ختم عليها بالطين وبات إلى جوارها حميصًا.

أصبحت له عباءة وصدار وحذاء، وحينما ورثه أبوه دارا في حارة الفقراء هدمها وأعاد بناءها، رفع عتبتها من غورها وسع باحتها وغرقها ضوء جوانبها عمرها بجاموسة وطفل وشياه ودجاج.

فقد تزوج امرأة سوداء شامخة لحيمه هائلة الأنف والفم، جسيمة الفخذين، يمخو عبابها في الليل بنخيرها العارم الكظيم، ابنة عبد هي، ربما كان أن ملك في تلك البلاد السوداء البعيدة وإذا كانت روحه قد تمزقت بسوط النخاس

وورثت المرأة هذا التمزق الأليم فإنه هو يعاني تشوه جرثومته بفعل نجس قديم.

وله حقل ممدد في الشمس يبقر بطنه بسلاح المحراث مكتوم الرنين، عالق بدار وحقل وجاموسه فحلة، مكتوب على طباقة الحيازة، مرصود في دفاتر الصراف.

وهو يرتل الآيات في الليل، فإن خضمها ليزجر بقوة يعلو هزيمها على شموس قلبه الأبق القديم وهو يصرخ في عيال الكتاب بالقرآن، تملؤه خدودهم الغضة المذبوحة بالعصا احساسا دامعا مثعالية دفيئة.

وهو يدور بالتلاوة على بيوت حارة الفقراء وإن قوة القراءة لتأتيه بالنساء خوانع ذليلات، تأتيه بعسل، طفلة الوجه والقلب ولاعيون.

-وريني يا بت

وكشفت عن صدرها، انزاحت خشونة القماط عن خدود الأثداء الطفلية ثديان أدعجان، حلمتان دقيقتان يدور حولهما الاسمرار والزغب، أمسكها الشيخ أحمد ماع كفه طراوة ونعومة، ماع قلبه حناناً.

- بنت.. أنت حبلي.
- يا فضيحتي
- هوا مين
- .....
- فين
- في الغيط
- يا هبله

وبكت عسل، بكت وبكت، أخذها في حضنه ضمها إليه صارت له، تسأله وتتصت له مرتجفة وهو يقول.

وها هو يدب في العتامة مكينا وثيقا له هذا الليل، الليل حقله المروى، زريبته بأنفاس البهائم الساخنة.

مال على الشباك المضئ المقسم بأعمدة الحديد في صدر الحائط الرمادي المعتم تشبث بالحديد البارد الصدئ، اطل على الغرفة الخالية المدهوكة الحيطان بالطين، المضواة بشعاع أصفر كاب ومن أسف عتبة الشباك انبعث رأس سليمان، ومن وراء القضبان الحديد أطل تتقطر ملامحه الرمادية بكاءً أخرس ذليلاً، وجه أحرقته السنون والثكل، صوحته كأنما هو شاهد طيني منصوب على حدث قديم.

تناول سليمات القرش، اشقطه في العلبة، مد يده الرقيقة المرتعشة بالسيجارة، تناولها الشيخ أحمد، وأراد سليمان أن يعود إلى رقودة على الدكة أسفل الشباك، لكن عينا الشيخ أحمد الشائهتين بالعمر والمرض – ظلتا عليه، بادلة سليمان نظرات تعبي، متكسرة الجفن، تثقل هامته على رقبته النحيلة الواهنة وتهوى مع رتباة انفاس قلبه.

أغمض الشيخ أحمد عينيه على همهمة تترسل في صدره، نهمي مترتلة كبكائية الثكلى، تشبث بالحديد أن يتداعى، أن يبقي عند أسفل الشبام مضعضعًا ذليلاً، محدوبا منكمشا على نفسه، جلسته القديمة يرتل القرآن تحت شواهد القبور.

لكنه تماسك، وبصوته المشروخ بهواء الليل الباردة طلب كبريتا أشعل له سليمان سيجارته ومضي ثوا إلى رقادة المطئمن،ومشي الشيخ أحمد، تتسلل صحكات العصا على الأرض منعثرة يتتابع جذب الأنفاس وزفر الدخان في تنهدات كسيرة.

الخطي تلقي بالساري في المهامه الممتدة، والليل مقبرة راكدة الصمت والظلال، ووقع الخطي يعصر القلب بالقهر ويحل وثاق الاطمئنان ينهار العزم انهيار كومة الرمل الناعم، ورث سليمان عن أبيه حقلاً وبهيمة ودارا، وولدت ام امرأته عيالاً، لكنه أبدًا ما رقد على عشه ليدفئه، أبدًا عزوفا منصرفا شارد متفكرًا نظيف الثوب واليدين والحيوانات الطفلة تموت في حقلة السبخ وداره الصامتة التي تمرق من منافذها الرياح.

مات سليمان من يوم أن شب من يوم أن عزف عن الحياة من يوم أن أعرض عن توسيخ يديه وقلبه يروث الدنيا، كيف يبقي هذه الدار الصامته الرطبة الطنانة كشاهد طيني مقبض كيف تبقي عيناه مغروستان في القلب.

لم لا يموت الرجال كما تموت الثيران منحورين بسكاكين الجزارة، يصارعون حتى تتفجر الرقاب بالدم القاني، لم لا يندرس الرجال كما تندرس الثيران، أليس نظامًا فاسدًا أن تنام شواهد الطين على الاجداث وتبقي مطلة في الليل كعيون مكبوسة بالعمى، وأن يحف هزيم قري الأحياء بصمت القبور الباردة الرمادية، تكبس على القلوب

والأرواح، على لغط الناس وسخونة تخالطهم وتزاحمهم بالرغائب والشهوات.

لكن الناس يعيشون، يخبون بالجلاليب وحفيف الأقدام في البهم، راجعون في الليل كسباع الطير مسارعين يقرأون السلام مخافين يسري الهمس خلف غلائل العتمة يبصبص كلحظ السارقين، كومض عيون القطاط الخطافة، وسوسة يعرفها قلبه، تومض في عينيه جسارة تستأنس الظلمة يتوثق في كيانه حولاً لم ينكسر تحت وطأة الأيام المجدبة.

يتسمع فيدرك قلبه عواءًا طفليًا بعيدًا، كأنما غيابه البهمة وجار كلبة سوداء والدة تعبق بأنفاس الحياة الجديدة، أنه مخاض بهيمة، أنه عجل جنين يتقلب في رحم الام يجهد ليخرج يسعى بخطمه الأسود المبلول على ريح هاتور الدسم الرطيب.

يا ليل هاتور الجهم الملامح كوجه الرجل الحكيم العامر بالثراء كقلب الرجل الحكيم، الطري كثدي الرضع، الحافل كثدي المرضع، يا ليل اغتذي على الأوائل الشتوية، مخملي كورق البرسيم، دسم كورق البرسيم، مخلوط النسائم برائحة دم الولادة.

يا ليل نائم تحت بطون الجواميس ألحيالي، راضع في أخلاف الجواميس الوالدة، مباركة رؤوس العجول العمياء الباحثة عن فتحة الرحم لتخرج، مباركة الأخلاف الثرة، مباركة سوائل الولادة، وعبق الطبيخ، ولزوجة السناج رجشاد ألشيعي.

مباركة الدار العالية الحيطان وسط الدار القميئة مباركة الكوي المدخنة وأعلى الباب المسود، مبارك الدخان الصاعد من الفجاج وخلل الجدران وحزم الحطب على السطوح.

ارقد بالليل على الدار والقلب كدجاجة أم مقرقرة فواحة بالتتن، ضم في حضنك الناعم المزغب النائمين بقلوب صاحية، العراة الغارقين في العرق الاتداء الناشع من حلماتها اللبن، أحلام البيع والشراء والشبع.

دفع باب داره انفتح امتلأ قلبه بالباحة الدافئة المضيئة، باختلاط الروائح والأصوات المبغمة من البناني والزريبة والغرف التي أوى إليها العيال، ابتهج ابتهاجًا غضوبا رسخ في مكانه راكزا عصاه متلفتا حواليه، أقبلت عليه امرأته القديمة تتطلع تهرف تولول، لكزها في صدرها شاتما، انقلبت

تجري متخيطة إلى الغرفة الداخلية، صفقت الباب أنقفل وراءها أنحبس صخبها لا يبين.

زفر مرتاحًا القي بالعصا والعباءة والعمامة والجلباب على وتد الحائط، توترت صاقتا انفه تشمما، يدفعه خيشومة المرهف ناحية الزريبة، مشي إليها حافيا عاري الرأس في سرواله وصداره تفعم الرائحة رئتيه يحدق في تهاويل الظلام وشحوب الضوء حتى يبين له هيكل الجاموسة، والمرأة السوداء تحمل على رأسها اللمبة ذات الشعلة، تراجع إلى الوراء قليلاً مشت المرأة مفسحة له، تهتز اللمبة على رأسها فتتخالط الظلال ومناطق الضوء.

بطن البهيمة تتدلي والضرع مزدحم تكاد الأخلاق المنتصبة المحمرة أن يتفجر منها اللبن والجاموسة تباعد بين خلفيتها وقف إزاءها يتأملها محدوديًا، والمرأة السوداء في مكانها جهمة لا تريم.

أغمض عينيه، توشك أن تتحدر على وجهه دموع فرحة طفلية فغد أو بعد غد تلد الجاموسة ويرتجف قلب الدار على نعار العجل الوليد، يتدفق سيل اللبن وتتمرغ الأيدي في الدسامة.

فتح عينيه ضاحكاً ضحكة واهية قريرة، فان ملامح المراة السوداء ضخمة غير متناسقة كأنها قطع من الطين القيت على عجل ودونما اعتناء، غير أن لمعة عرنينها ووميض عيونها معيًا بأنفة عنيدة.

مشت إمامه، ترتدي قميصا وحيدًا يبدي تلاطم لحمها، تبعها يغرس نظراته في عجيزتها، عند باب الزريبة مالت عن طريقة ليسبقها، إذا حاذاها قبض على شيات لحم بطنها أنشب فيه أصابعه، تحت يده بقوة متثنية فحلة، قد تدلت شفتها السفلي وتحول سواد عينيها مسفرا عن لمعة بياضهما في الضوء الخابي، مشت وعرامة تكويتها مفضوحة تحت قميصها الخفيف.

تبعها يحدق فيها بعينين محمرتين ورأسه نازلة عما بين كتفيه كالكلب، تحس سخونته وراءها لكنها لا تبالي به، تدور في الدار، ترفع الأواني والمكائل والحبال من بعثرتها، تعيدها إلى أماكنها المعلومة، تطل على الأرانب في الاخنان، تملأ مساقيها وتزيد علفها تعد الدجاج في الصوامع..

زفر مغيظا محنقا، ثم قفز على ظهرها حزم ساعدية حول بطنها معتصرا لحمها الوثير وقلبه يضرب كالطبل، لكنها انفلتت من وثاق هجمته مبتعدة، عاود الهجوم لاهثا وهي تنافح شرسة، طراداهما المكتوم وفحيح أنفاسهما المبهور يضطرد في أطار من همس الحمائم وتهدات الفراخ في الصوامع ووثبات الأرانب الصارخة في الاخثان.

و للرقصة الليلية الساخنة تزداد سعارًا، يلاحقها، تناضل مراوغة يدخلان مناطق الظل، يندفعان إلى شرائح النور، يتلاطمان، يرتطمان بالحيطان، تند عنهما الشهقات أو الزفرات أو الصرخات المنبترة.

كلما كبشها زاغت، أصبح وجهها بشعا وشعرها هائش منكوش القي بنفسه عليها متشبا أصابعه في لحم جنبيها ملقيا بها على المصطبة، يسحق صدرها بصدره، انقض على شفتيها مغمضا بعض كتلتهما بأسنانه، زيقها بخالط ريقه مخالطة مبلولة.

انفلتت من تحته ساقطة على الأرض، لحق طرف قميصها، لواه على يقبضته، جرها وراءه لاهثة إلى الغرفة تمشي ملقاه الراس إلى الخلف تعمل في ظهره واكتافه

بأصابعها عارية حتى خاصرتها ساقاها اسودان بدقان الأرض نرتج كتل لحمها في سيرها المقاوم الزغيم.

دفع بها إلى داخل الغرفة، رفس الباب صفعة وارءه التفت إليها كالنمر وهي تخربش وجهه وتعضه وتشتمه بهمهمتها الوحشية، حمل ثقل جسمها والقي بها على ظهر الفر،و قفز لحقها، ركبها كحجر الطاحون يلبس محكما في مجاله، وجهها يتحرك يمنة ويسرة وساقها يتبادلان رفس الهواء وهو فوقها لا يفلتها، حتى بدات تلين له، تجاوبه، تعطيه.

ثم جن جنونها، لفقت ساعديها الجسيمين حوله، تدفع صدرها إلى حضن صدره تمرغ وجهها في وجهه، تقمص تحته، تعض رقبته تحتضنه بساقيها تضطرم عارية ساخنة غارقة في العرق.

لنتابته رعدة.. رجع.. فتح عينيه على وجهها، حائلة بياض العينين ملتوية الشفتين، متقلصة الملامح بشعة، امسكت براحتيها وجهه الذي نبأ عن صدرها ضمته إليها بقوة، مفعمة العينين بوله مجنون، طاوعها عائدًا، يريح خده على نعومة ثديها، لحظة حنان لم يجرب عمقها أبدا.

النهار:

.. مقدور أن نقوم، أن ننتزع من حضن الليل بأيدي النهار البرصاء التي تلج ركن الغرف من فرج الشبابيك، مقدور أن نقوم، تدفعنا من أعماقنا مخافة الفوت. نحمل قلوبا مدفونة في الصدور كضفادع مدفونة في طين الشطوط، تنق نقيقا ارعاً أخيراً،و بعد أن سوف يعلو وضح النهار و تضيع ضراعة القلوب في الصخب المختلط.

يثقل الهم روحه و جسمه، متوجس من الصبح توجسه من بهامة الليل، يحدق في شقوق الشباك الفضية، أشتبهت وضاءة الشروق بكآبة العسق و جفت دماء القلب، أسود كجلدة كير الحداد.

يعرف قدومهم مع الليل البارح، قطع من الظلمة ساخنة الأنفاس، مثقلة عواتقهم و ظهور دوابهم، ركضهم اللاهث الساخن ناشب في عروق العتمة، واصل إلى كل قلب كأنهم الذئاب الغبراء،و الليل يراكم على ظهورهم و حزم بضائعم بلولة الطل، لكن قلوبهم تفور كصفائح الشاي المسودة في حضن و إذا يعلو الضحي تحتشد القرية في الباحة أمام المسجد دائخة مخدرة كسيرة، شاه ضربها ذئب

السوق في ام رأسها بنابه، في وجوه الناس تشوه خوف،وفي ضحكاتهم رجفة، يحملون أشياءهم بأيديهم، تتوشهم لعبة الموازين و الصراخ و العيون.

وفي العصر، عند أقدام الحيطان، و في الحارات و باحات الدور، تتكسر القامات و الظلال، و تتكسر الكلمات، في جرسها غنة أنثي كسيرة و يحكون عن السوق، عن البيع و الشراء مستطعمين لذة الخضوع للافتراس.

مازال المصباح على الرف الطيني يضيء العتمة، لكنه عجوز متكسر، و بقايا الظلام معلقة، من أرجلها في الأركان القصية، و بساط النهار يفرش أرض وسط الدار، تتمدد حواشيه تزحف على الحيطان أكيدة باردة.

يتصنت، يسمع سنيال اللبن يشحب في الشلية، يسمع غمغمة العيال و الفراخ و الحمام، القلوب الملهوفة على الصبح تتقر شرانق الظلام، بعد أن تأتي المرأة السوداء تطلقهم من الغرفة و الأخنان، تطلق نهارها الذي تملكه لنفسها، تطعمه و ترعاه، تحيط به و تحوش عنه،وفي المساء تحبسه، تغلق عليه و تنام.

المرأة القديمة تنحدر نازله على السلم الطيني، يداها ملوثتان إلى المرفقين جهمة نكدة تولول و تشتم كل شئ، ما عاد يناها، أصبح يعرف امتلاء القلب بالذعر،وكيف تخف رأس البشري حتى يشابه دجاجة طائشة، ما عاد يناها، أنما يلقي إليها سمعه و هو قائم يراقب نوبة هياجها حتى تستفرغ طاقتها، تنحدر دموعها و تتكوم على الأرض يهزها النشيج.

والبنت الكبيرة تدور في وسط الدار، تبدر الحبوب للدجاج النهم المتزاحم الصخاب، تأملها، أستراحت عيناه على نماء ثدييها و استدارة بطنها، و انسحاب فخذيها في قميصها الخلق الخفيف، خطوط جسمها تنسرح في حزن لين رقيق، وجهها أسود قبيح، لكن ملامحها تنطق بذلة ترتب على القلب، كم يحبها ابنته البكر، الغضة صمتها هامس منعزل في صخب الدار،وسط ضجيج الذكور الخارجين من الغرف مطموسي العيون بلطخات الششم الأبيض.

أشتمل عباءته و استند على عصاه، لا يريد أن يقوم، لكن ثمة يوما في حياة الرجل يخرج فيه من داره راغما، مدفوعا من دبره كالعجل.

و قف على الباب يتأمل الشمس المفروشة على الأشياء، ذهبية متهدبة كريش معارف الديوك، دافئة ناعمة الحضن كالزغب في بطن دجاجة أم، من ذلك الكن الدفئ يخرج المتسولون، جرذان الهدائم الخواقة.

ربما افجع ما في الصباح متسولو الصباح، الأغاني الكسيرة، دفوف المداحين، المذلبة الدامعة في عيني الحمار، الشراسة الحقودة في دعاء المجذوب، ينقر الباب و يمشي، و الأسئلة تنزع في صميم القلب المبسوط كراحة اليد.

يسال عن اسماعيل، طلاع النخيل القديم، يدور بالأبواب يجمع أرغفة الصدقات الصبحية، باب ثم باب ثم باب، ملق على العكاز، تبريش عيناه من تحت الأسمال، هل يمشي ناحية الدار، هل تدب خطواته تجاهه.

-حسنة لله يا سيادي.

روعت الشيخ خشخشة الصوت المكسور

-صباح الخير يا سماعين

نكس اسماعيل عينيه، خنفساءان تبحثان تراب الأرض

- حسن لله
- أنت مش غريب
- أنا ماشي

استطالت رقبة الشيخ أحمد من بين كتفيه مندفعة نحو اسماعيل، يهتف به هتافا حاراً.

-ليه.. هو ايه.. هي الدنيا ماتت

واسماعيل يتململ في مكانه، مذعور العينين، يخفي ابتسامة جنونية تحت شاربه الأغبر الكثيف، زفر الشيخ يائسا لا شئ يشغل اسماعيل سوى قرص الخبز، ناوله الرغيف، اختطفه و انطلق يطلع.

اسماعيل سقط، طلاع النخيل القديم غدرت به النخلة الحمراء العالية في الجرن بظاهر البلد،وكم طلعها خفيفا عارفا يحرق شفتيه عقب سيجارته و يطلي شاربه الكثيف بالصفار.

و عسل طالعة، تتريث قليلا على العتبة، مطلية بالشمس الذهبية و الشال و الكحل و الابتسام، عقد باب دارها العالي متقوس، حول بهاء وجهها و اكتمال كنفيا.

- صباح الخير يا شيخ أحمد

- خير يا عسل

و القلب لا يزال،و في القلب ما تزال يـــوم جاءتـــه، رسوم اللحظة على امتداد جسده كالوشـــم لا يزيلـــه مـــرور الاوقات.

لكن عسل ما عادت تسأل ماذا تفعل تزوجت الوغد، لوحت في وجه الناس بالوثيقة، ثم طلقته و عاشـــت بنفســـها تسرح و تثوب تبيع و تشتري تعلي حيطان دارها قبالة داره، تحب التلاميذ تضاحكهم على قارعة السكة، تشرب ســـخونة أنفاسهم في ظلمة الأركان،وهو ها هنا تقرئـــه الســـلام فـــي الصباح و المساء.

-بعت عجلك يا شيخ أحمد

الرجال تهرم، الكلمات كالرجال تهرم، يخبو بريقها و تتغضن، و تصير حافلة بالندوب مشحونة بالكراهية.

-مستني التجار.. وزينا كريم

ولو انصت له ليكي، وحلف حتى ترضى، حتى تعود لعيونها طفولتهما و ينفك من حول قلبه إسار الرعب.

لكن عسل تضحك بلا سرور ضحكاً مريراً، يوجع ندوب القلب كأظافر القطة.

غرف خروج المرأة السوداء من باب الدار خلف ظهره، استدار لها دونما إرادة، جمداً متقابلين لجزء من الثانية ثعبانان يترامقان بمقل عارية من الجفون زوجان متعارفان إلى الزهد الموات الذي لا تنبض فيه رغبة، لا يتكلمان منذ أن يموت موعودا في القلب و تولد بينهما لغة خرساء صموت كلغة النمل.

الرجال يمرون به محملة ملامحهم بكآبة العزم، ممتلئون صمتا و مخافة و ذاهبون إلى السوق، و النساء يبصمن على السكة إقداما لينات كمخالب القطط ريح السوق الزخمة المتربة، القوي قحباً قديما، تزقزق فيه صرخات داعرة لا تسمع.

يتقبل التحيات الصبحية، ويخافت كارها بالإجابة و يعرف إقبال التجار ناحيته، يحشون اشداقهم ضحكا، و يلوون وجوهم في الجوانب، تتجاوز عيونهم قلقة المتضام المكتوم، طاوين جوانحهم علي أكياس نقودهم المنتفخة.

يروعك الجرل الذي يشيل ثراءه كله في حافظة نقوده،هي حقله و بهيمته، مبذولة بين يديه كالفخ، حاضرة مرهفة كالمخلب، تخالس اليقظة و الحرص و هي كالصقر طائر محوّم منقض.

- سلام عليكم يا شيخ أحمد

- عليكم السلام

لكنهم لن يسرقوه، و لن يعرفوا عن مخافة قلبه.

وهكذا استوثق لجلسته فأسند ظهره إلى حائط و سط داره، و ركز عصاه في الارض محتضنا ركبتيه بساعده، و التجار يفحصون العجل الطفل بغلظة وبلا تحرز، ثم يعودون يتحلقون حول الشيخ تبتسم العيون و الشفاه في فتور.

وفجأة يحتد و احد منهم و يطعن العجوز بكلمة كالخنجر

-أنت هتبيه؟

تتخدر فرائضه و يحدق في وجه المتكلم الغاضب غير فاهم شيئاً

-امال هلعب؟

يتدخل ويخر شارحاً رصيناً هادئاً بارداً كالسم

-اصل أنت يا شيخ أحمد مرجعاني.. و مـــا لكـــش كلمة!

- جري ايه يا جماعة؟

يضحك أحدهم مادا يده للشيخ و دون وعي تمتد يده، خائف ككلب مبلول تحاصره العيال

- ثمانية جنيه.. بعت؟

- لأ؟

و اصابعه تتملص في ارتباك من آثار اليد القابضة، و الرجل يعصر اليد الهرمة بقسوة ثم يلقي بها زاهداً قرفانا.

- الراجل ده مش بياع!

و يترسل آخر في الكلام فاتراً حالما يتأمل اصـــابعه تلف ورقة البقرة حول حبة الدخان.

-ايوه.. حاجته غالية عليه.. عين فيالجنة و عين في النار.. و البيعة اللي زي دي ما فيهاش رباح!.. و يضـــيف آخر

.. و يضيف آخر.

- وبتاخذ في سكتها!

و العجل و اقف قبالة الشيخ هشا تعاب مفرق القوائم، متدلي الهامة جاحظ العينين، و البنت تدور من بعيد ترى أباها بعينين باكيتين، يستطيع أن يطردهم خارجاً،وينادي ابنته إليه، و يقول لها أن تعنى بالعجل، و سوف تفهم و تلزم الحيوان الطفل، و لا تخرجه من قلبها أبداً، لكن كابوسا يقهر أردته بالجمود.

يتودد إليه أحدهم:

-العجل هزلان يا شيخ أحمد.. مراتك ما بتخليش في فمه حفان لبن بقوته!

يعرفون عن سطوة امرأته في الدار عن شحها على بهائم، وهوان حزمة عليها، يشيرون إلي عورة حياته بإصبع همجية.

- ما نيش بايع

ويقهقه أحدهم

- ولا بتسعة؟

وكاد يبكي حقا و هو يقول

-لأ

وقاموا يخرجون تتسحب الضحة مع خطوهم و بفرش على أعقابهم الفراغ.

لكن على العتبة رجع أحدهم و حافظته في يده يقول في حزم صادق رصين

-اسمع.. العشره اهه.. فهيا جنيه مش بتاعك.. هيه.. قلت ايه؟

و يتبعه آخر ممتلئ الفم بالضحك ممتلئ الكيان بالرقص يكلم زميله

-معلش.. يقرأ بيه سورة البقرة على أبوك

لكن المتكلم لا يبالي بالفكاهة و يصرخ بالشيخ أحمد

-بعت..؟ قول يا أخي بقي.. ينعل ابو دي بيعهة

ويتصهر العجوز في لفحة الغضب

-بعت..!

يأتي إليه الثالث كأنما هو موشك على تمزيقه

- يعت دي كمبيالة.. ترجع في الكلام لأ.. احنا مش عيال

و الجنيهات العشرة في يده لا يحير جوابا، وهم يأخذون العجل، يدفعونه من دبره خارجين، وإذا بصمت وسط الدار بعد خروجهم يدرك الشيخ أنه سرقو سرق بدناءة و بلا رحمة.

انطلق يجري على آثارهم، زوبعة من الأصوات تحمله كورقة، تعصف به عصفا، تعلو في صخبها المختلط الغاضب قهقهات عسل كفرقعات سوط، و قهقهات عيال الكتاب الذين كبروا و أخذوا عسل إلى كل الاركان قهقهات آتية، من شقوق الارض من ابعد ايام العمر ما عاد شئ، ما كان شئ كل الأيام خرائب ينعق فيها البوم، يوم على رأسي كل يوم، كان يجب أن يعرف أنه لا جدوى فيأخذ حبله و سكينه و يسرق، الان يبارك السارقين بصراخ مخلوط بالدم من قلب هرم، هرم، لكنه قادر على أن ينشب أظافره في حلقوم رجل و يموت و على نواجزه امشاج من لحم ودم.

و حالما تميزت ملامحناجر البهائم في عينيه انشب مخالبه في حلقومه، تغور في غضارة لحم الرقبة، و الرجل المذعور أهوى على وجهه بصفعة هائلة فجرت برقا في عينيه، و صفرت في اذنية صفير اص حاداً مستطيلا كأنما في دلخله بئر قرار.

الناس محدقون وجوههم صفراء عطل من طلاوة الساوة بليت ملامحها كما تبلي دهاكة الحيطان، موصولة بقلوب عليلة، تندفن الرؤى في أغوارها السحيقة تحت ركام ألف عام من القهر و المخافة.

لكن الحدث فعل فذ، نشب في تويات الخلايا قبل أن يلحقه الإدراك، ارتعدت الفرائص في غيبة الوعي، تفجرت الرؤى من أعماق القلوب العليلة دامية شرسة، عاوية متعاركة كذئاب جياع في ظلمة رائعة أعمت البصائر و أطلقت حبائس الإمكانيات الجارحة.. الساقطة.. كبروق الليل الموجزة.

وغمر الضحى هذه الكيانات البشرية الهزيلة و جلابيبها المتسخة، إضاءة الوجوه الكابيه تحت الطواقي الصوفية، يصنع لهم ظلالا متكسره متفرقة، فياما متباعدين أو قعوداً مبعثرين على دكك المقهى، يبصرون بالرجلين يقفان متقابلين على وجه الأول صفعة و على رقبة الآخر آثار أصابع خانقة، ينظرون اليهما ذاهلين، غير فاهمين شيئاً. .أنما.

حصل خير.. حصل خير

و يدفع الشيخ بعيداً تاجر البهائم إلى الجلوس و تناول الشاي، الحركة و الكلام يثقلهما وجوم، فقد كان حلما باهظا صحوا منه مشلولي الأيدي و الإرادة.

و الشيخ يجري، يحمل موتع على عاتقه مبتعداً، مرتعداً ككلب مسمون يبحث عن ركن قصي يموت فيه، يدور بعينيه في الجوانب يروعه صخب السوق، تتساقط على رأسه الصيحات و الصرخات، تلكزه في جنبه الاندفاعات

الفجائية، و تهمم عليه بشاعة الملامح و تشنجات حوار الأيدي و الاصابع.

دفع الباب، الدار صامتة كالقبر، دخل الغرفة، كافح بكل طاقته ليصعد ظهر الفرن، سقطت عمامته و عصاه، كافح بأظافره و أسنانه لحقت به ابنته الكبيرة، اعانتهحتي رقد ممددا على الحصير و دائرة فضية من كوة الحائط تسقط على وجهه.

ابنته تطل عليه،وجهها غائم بلهفة خرساء وهي ترى تقلص ملامحه الأليم تأخذه يده بين يديها، جامدة باردة كالثلج، تتشج منادية اياها، تمرغ وجهها في بسطة راحته الباردة، تدعكها في دفء لحم رقبتهاو تدفئها في صدرها مغمضة العينين هغالعة، يدور وجهها في الجواتب جزعاً على ابيها، تحضن يده إليها، تعطيها بكل طاقتها من دفء ثديها الطفلين.

وراحة اليد متصلة يخفقان قلبها و حر صدرها مبللة، بدموعها، تدفأ تمشي في عروقها حياه مرتجفة، تدب الأنامل الواهنة، تحيط الراحة الكبيرة بتكور الثدي.

ودائرة الضوء ساقطة على الوجهين المتقاربين، على يدي البنية مضمومتين إلى صدرها تحتضنان اليد الهرمة في ضراعة مرتعبة. سخونة تلعب وجهها و تضرم في عروقها ناراً لم تعرفها أبداً مخافة مضرجة بالمسرة، تكاد تجحظ عيناها في قبضته عماء مفزع.

لكن ملامح الوجه الهرم تسترخي من قبضة التقلص الأليمة و تستريح، و يستضئ الوجه برضا قرير، تنزل دموعها دفيئة، و تحتضن اليد الأبوية ف يحنان و تحكم بسطة راحتها على جماع ثديها و تستسلم لحرقة البكاء.

و فجأة يقسو الوجه، تتصلب الملامح تتسع حدقتا العين في تركيز باتر غير مبصر تعبير لم تره على وجه بشري أبداً، تتدفق مخافتها من آنية من اغوار عروقها، تحس الألم الموجع لقبضة اليد المتشنجة، تصرخ صرخة فزعة.

من صوت انحطام غرية البكر الباقي في قلب كل رجل ذكر، من صراخ البنات يصنع الوهج الحامي في أضاحي الأسواق الرجفة و الترويع و الجنون في صدر النهار المترب المنصوبة فيه قدامي الحيطان مجلةالرؤوس

بالحطب المصوح النهار الياهر الشرس الواصل إلى أطـــواء السرائر و الهواجس.

و الشمس قحبة، لخطت نفسها بالطلاء وازدهت فـــي ضحي هذا اليوم من أيام هاتور، أنشبت مخالبها في النـــاس الدائخين، الخائضين سحائب الغبار، المعذبين بالقلق و الرغبة في البيع، تلك الرغبة الأنثي المهيضة المفرقة الســـاقين فـــي ساحة السوق.. في عرس اللـــواط و الشـــمس تضـــحك إذا تتخصب أيدي التجار و صدورهم كما يتخضب الحاصـــدون بدماء البرسيم.

نجست الشمس و الأرض، نجست السـكك و ذيـــول الجلاليب، نجس التراب والقتام، نجس البيع و الشراء.